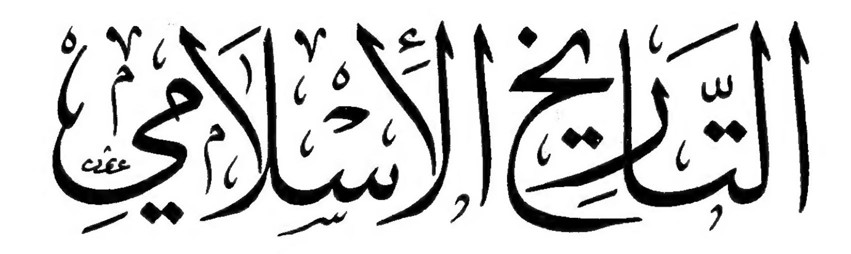
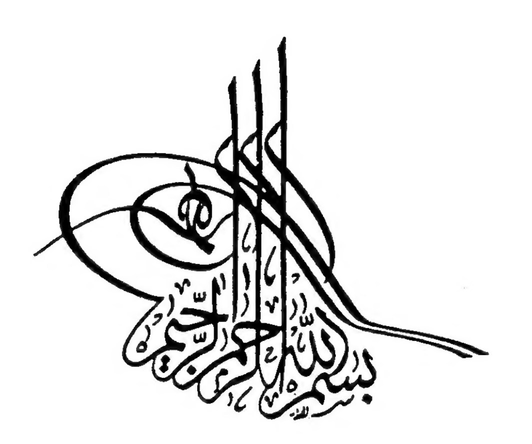


— ١ —

قبل البعثة

محمود شاكر

المكتب الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ الإسلامي

— ١ —

قبل البعثة

الطبعة الثامنة
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه ومن سار على منهجه وَبَعْـد:

فإن لكل أمَّةٍ تاريخاً تسجله من منطلق عقيدتها وواقع حياتها، وتحرص على تنقيته من كل ما يخالف تلك العقيدة حتى يكون ناصعاً منسجماً مع ما تصبو إليه نفوس أبنائها، وما تريد أن تنشأ عليه الأجيال في المستقبل، هذا بالنسبة إلى كل أمم الأرض، إلا الأمة المسلمة فإن تاريخها قد لعبت فيه الأيدي المنحرفة في الماضي، وحرَّفته أقلام المستعمرين وأنصارهم في الحاضر، حتى غدا تبعاً لتاريخ الانحراف في الأدوار التي مرَّت، وشبيهاً بتاريخ أوربا في العصر الحديث، يتماشى معه، ويتممه على أرضنا التي نحيا عليها. ومع هذا فلم تبدأ الأقلام الحرة بعد تخط التاريخ الإسلامي بشكله النقي.

إن الأمة القوية تحاول أن تفرض لغتها وتاريخها على الأمم الضعيفة أو التي أخضعتها بالسيف، ولقد طغت الدول الأوربية على البلدان الإسلامية خلال القرون القليلة الماضية، وفرضت تاريخها عليها، وحاولت فرض لغتها أيضاً، إلا أن وجود القرآن الكريم قد حال دون ذلك بالنسبة إلى اللغة، أما التاريخ فقد بقي يدرَّس حتى بعد زوال الاستعمار في البلدان الإسلامية، بل ويعلَّم في أكثر بلدان العالم، يدرس تاريخاً أوربياً خالصاً، وحتى التاريخ المحلي، فإنه يعطى من وجهة نظر أوربا، ذلك لأن الأوربيين كانوا يسيطرون على أكثر أجزاء الكرة الأرضية، وأصبح تاريخهم عالمياً حسب مصطلحهم، لأن أكثر الدارسين كانوا يتجهون إلى أوربا يتلقون فيها

العلم، ويأخذون منها التوجيه، ومن بين ذلك مادة التاريخ التي حرص عليها الأوربيون حرصاً شديداً، وعملوا على توجيهها حسب وجهة نظرهم ومنطلقهم الخاص، وعندما يعود الدارسون إلى مناطقهم التي خرجوا منها، فإنهم يسجلون ما تعلموا، ويدرّسون ما أخذوا وما نهلوا، وينشأ الجيل بعد الجيل على هذا التوجيه، وتسطر الكتب، وتصبح مراجع ومصادر لكل باحث جديد.

هذا التاريخ الذي يزعمون أنه عالمي لا ينطبق بالفعل إلا على أوربا، ولا يشمل غيرها، ويقسّم تاريخ العالم إلى ثلاثة أقسام تبعاً لما مرَّ في أوربا، وهذه الأقسام هي:

١ ـ **التاريخ القديم**: ويبدأ منذ معرفة الإنسان الكتابة حوالي عام ٣٢٠٠ق.م. وينتهي بسقوط مدينة روما بيد البرابرة الجرمان عام ٤٧٦م، ويمتاز أواخر هذا القسم من التاريخ بقيام إمبراطوريات واسعة، وظهور حضارات حسب المفهوم الأوربي.

أما المدة التي سبقت فتعرف باسم ما قبل التاريخ، ويعدّون أن الإنسان كان فيها بدائياً متأخراً، لا يعرف اللباس، ولا يجيد النطق، ولا يحسن التعبير، يستر الشعر جسمه، هذا ما يتفق مع مفهوم أوربا العلماني، إذ لا يأخذون بعين الاعتبار الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله من القديم لهداية البشر منذ أن خلق الناس في الأزمنة الغابرة.

٢ ـ **التاريخ الوسيط**: ويبدأ من سقوط روما عام ٤٧٦م، وينتهي بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ على يد السلطان محمد الفاتح العثماني، ويمتاز هذا العصر بسيطرة الكنيسة، ورجالات الإقطاع، وبالجهل.

٣ ـ **التاريخ الحديث**: ويبدأ من فتح القسطنطينية، وينتهي في الوقت الذي نعيش فيه، ويتسم بالثورة الصناعية، وانتشار العلم، وقيام الحضارة الحديثة حسب المفهوم الأوربي الخاص، كما يقسم هذا الجزء من التاريخ إلى قسمين:

أ ـ التاريخ الحديث: وينتهي بقيام الثورة الفرنسية عام ١١٩٣هـ.

ب ـ التاريخ المعاصر: ويبدأ من قيام الثورة الفرنسية، ويمتد حتى وقتنا الحالي.

وإن نظرة واحدة إلى هذا التقسيم توضح لنا أن هذه الأحداث والسمات الخاصة بكل جزء منها إنما ينطبق على أوربا وحدها، ولا يتفق مع ما سواها.

في التاريخ القديم تتحدث أوربا العلمانية عن الحضارات القديمة، ونحن لا نعدّ هذه المظاهر في مفهومنا حضارات، وإنما مظهراً من مظاهر البناء، فالحضارة تتسم بالصفة الإنسانية، فإذا زالت عنها فإنما هي تسلُّط وإرهاب، وما البناء الذي يعدّونه حضارة إلاَّ بناء شيَّدته أيد على جماجم إخوتها، ورفعته على جثث آلاف البشر، أُرغموا على العمل به، وأُكرهوا على الكدّ فيه حتى لقوا حتفهم، والسوط على أظهرهم، والسيف مسلط على رؤوسهم. تعدّ أوربا ما بقي من آثار عمرانية حضارة، وما اندثر ضاع معه الناس وما شادوا، ولو أنهم ملؤوا الخافقين عدالةً وسمواً بالنفس، فكأن الظلم باقٍ والعدل زائل.

أما في التاريخ الوسيط الذي امتاز بالإقطاع، وسيطرة الكنيسة، والجهل في أوربا، فإن هذه الميزات لم تكن موجودة إلاَّ في تلك القارة، فالكنيسة لم تكن مسيطرة إلا في أوربا، أما في بقية أنحاء العالم، فليس هناك من كنائس، وإن وجدت فأصحابها قلة، ولا يمكن لهم السيطرة، ولا يستطيعون الطغيان، وأما الإقطاع فلم يكن هناك إقطاع بالمفهوم الموجود في أوربا، وهو أن يكون عمال الأرض وفلاحوها يباعون ويشترون، ويتصرف بهم المالك كيف يشاء، يقتل من يرغب دون محاسب، ويرتكب من أعمال السوء مع أفراد أسر فلاحية ما يبتغي دون ممانعة، وأما الجهل فلم يكن منتشراً في مكان آخر بالشكل الذي كان ينتشر في أوربا، وبصورة عامة غدت كلمة التاريخ الوسيط تعني التأخر، والجهل، والفوضى، وسوء النظام، والاستهتار بكل القيم، وإذا نظرنا إلى هذا الزمن الذي نتكلم عنه

كيف كانت بلادنا الإسلامية فيه، فنلاحظ انتشار العلم، وسيطرة النظام، ووجود القيم، فالمدن عامرة بالمدارس والمكتبات، وهي قبلة المتعلمين، ومساجدها مراكز إشعاع، هذا إضافة إلى الحضارة التي تتسم بالإنسانية، بل تعدت إلى الرفق بالحيوان، فالحضارة أعمال يبتكرها البشر، وتنظيم وتخطيط لخدمة الإنسان، فإذا لم تخدمه فليست بحضارة.

لقد كان اهتمام الحضارة الإسلامية بالإنسان، والإنسان وحده، الأمر الذي لم يلتفت معه المسلمون إلى البناء والإشادة، وإجبار الناس على العمل وإكراههم على مزاولة أعمال لا تخدمهم، ولا تخدم عقيدتهم، وإنما تخدم حكامهم، كما فعل غيرهم، وإنما انصرفوا إلى الدعوة والفتوحات التي كانت وسيلةً لنشر عقيدتهم فلم يخلِّفوا أبنية، ولم يتركوا قصوراً، ونستطيع أن نعطي صورة بسيطة عن صور من الحضارة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده تجلَّت في العدل والمساواة وإحقاق الحق والاهتمام بمصالح الرعية بشكل تبقى مثلاً أعلى للحضارة لكل من يريد الخير للبشر، فعاش الناس يومذاك حياة سعيدة ملؤها الراحة والطمأنينة والأمن وتأمين الحاجات الضرورية، ولم يلتفت المسؤولون آنذاك عما سوى ذلك من مظاهر تنهك الإنسان، وليس فيها أية خدمةٍ له، ولا يشعر بأية سعادة في ظلها، وإنما فرضت عليه، وكان يئن من وطأتها. وعندما انتهت الفتوحات، شيَّد المسلمون مواضع لا لخدمة الحكام والرؤساء، وإنما لخدمة رعاياهم وسعادتهم، أماكن على الطرق العامة كانت مراكز للبريد، ثم عرفت فيما بعد باسم (خانات)، على الرغم من وجودها في وقت مبكر، ولكن وصل إلينا هذا من آخر عهد له، والخان: كلمة مختصرة من (خاقان) وهو الأمير باللفظ التركي، وهو الذي ينفق على هذه المراكز، أو تقام باسمه. وكانت هذه المراكز مضافات على الطرق، يحق لكل مارٍّ أن يبقى فيها ثلاثة أيام تقدم له فيها الأطعمة، والشراب، ووسائل النوم والراحة، وكل ما يحتاج دون مقابل، وإلى جانب ذلك يُقدَّم لراحلته العلف في بناءٍ مجاور. وكان بين المركز والآخر مرحلة، وهي تساوي

الأربعين كيلومتراً تقريباً، وهي مسيرة يوم آنذاك، وقد توجد على مفترق الطرق، وعندها تكون المسافة بين مركزين متتابعين أقل من ذلك، وفي المدن كثير من هذه الخانات لكثرة زوَّار المدن وحاجاتهم المستمرة فيها، ولا تزال آثار هذه الخانات قائمة إلى الآن، سواء أكانت في المدن أم على الطرق، وتعرف بأسمائها في أماكنها، وإن زالت معالمها، وهي في المدن على شكل طابقين، وغالباً ما يستعمل الأول ـ وهو الأرضي ـ للحيوانات، والثاني للمسافرين. وقد يكون بجانب كل خان دار للثياب فيما إذا اضطر أحد المسافرين إلى تغيير ثيابه لسببٍ من الأسباب، كأن يصيبها شق أو تمزيق، أو يلحقها أذى من زيت أو دهن، فإنه يستبدلها بالمقياس نفسه، واللون نفسه، والطراز نفسه، ويترك ثيابه دون مقابل ولا منَّة، ويُصلح المركز الثياب المتروكة، وتُنظَّف، ويدبّر أمرها، ويعتني بها، لحاجة تستجد في المستقبل، ولما ضعف المسلمون، وسيطر عليهم غيرهم، انهارت حضارتهم، وأصبحت الخانات أماكن للحيوانات فقط، وغدت كلمة خان تعني: اصطبلاً. وتعدّى الأمر في هذه الحضارة فوصل إلى الخدم، فكانت توجد في المدن دور تسمى: دار (الزبادي)، ومهمتها تقديم الآنية والأوعية إلى الخدم الذي كُسرت آنيتهم معهم وهم في طريقهم إلى جلب حاجات لسادتهم، كي لا يجد هؤلاء الخدم عقوبة تصيبهم، أو أذى ينالهم، أو كلاماً قاسياً يسمعونه من أولئك السادة الذين ربما كان منهم الظالم القاسي أو الجاهل العاصي. وزاد الأمر على ذلك فوصل إلى الرفق بالحيوان، فكان في كل مدينة ما يسمى بـ (مرج الحشيش)، وهو مكان متسع مليء بالأعشاب، محاط بالأسوار، وفيه بعض الحظائر، فإذا ما عجزت دابة عند فلاح في المنطقة عن العمل، فإنه يرسلها إلى ذلك المكان بدلاً من أن يتركها في العراء، فلربما عجزت عن الحركة، وماتت جوعاً، وربما كان في مكان قريب من السكن، وعندها يتفسخ جسمها، وتضرّ بصحة الأهالي، أما إذا نقلت إلى (مرج الحشيش)، وهو ما يشبه مأوى العجزة بالنسبة إلى البشر، فيصبح القائمون على المركز مسؤولين عنها، فإذا كانت تستطيع الرعي سائمة تركت وشأنها ترعى، ولا تستطيع الخروج من المرج، وإذا

كان لا يمكنها ذلك، وضعت في الحظائر، وقُدِّم لها العلف والماء، حتَّى إذا انتهت حياتها، نقلت إلى خارج دائرة السكن لتأكلها سباع الفلاة، أو ليردم عليها التراب. ومن آثار هذه المروج وآخرها: (مرجة الحشيش) في دمشق التي بقيت تحمل هذا الاسم حتى مدة قريبة، ثم أصبحت ملعباً للرياضة، فعرفت باسم (الملعب البلدي)، ثم أقيمت في ذلك المكان أبنية المعرض، وهذا المكان محصور بين نهر بردى وفرعه نهر «بانياس» والتقاء هذين النهرين، أما الجهة الرابعة فكان محجوزاً ببناء الحظائر، وهو مكان المتحف اليوم، مقابل تكية السلطان سليمان العثماني المعروفة، فهل عرفت حضارة من حضارات العالم تحمل أمثال هذه المعاني؟

هذه هي المعاني الإنسانية التي يجب أن تتوفر للنهضة كي تسمى حضارة، أو للمدنية حتى يطلق عليها هذا الاسم، وهو ما يجب أن نرسِّخه في نفوس الأجيال، ونعلمهم إياها باستمرار لينشؤوا على مفهوم الحضارة الصحيح، وما قدَّمته أمتنا في هذا المجال، وما هي القيم التي تحملها الحضارة؟ ويجب ألا ننقل إلى تلك النفوس بعض مظاهر العلم أو البناء ونطلق عليه اسم حضارة، كما هو بالمفهوم الأوربي، فتضيع الحضارة بين بعض مظاهرها الضعيفة، ويتيه النشء بين الاصطلاحات ومداخل التعاريف.

هذا التاريخ بالنسبة إلى أوربا. أما التاريخ الإسلامي فيمكن أن نقسمه إلى ثلاثة أقسام أيضاً حسب مثلنا وقيمنا وعقيدتنا ومفاهيمنا، وهي:

١ ـ **تاريخ ما قبل الإسلام**: وقد استمر مدة طويلة كانت جاهلية بأكثر معالمها باستثناء جماعات عاشوا مع أنبيائهم، وساروا على نهجهم واتبعوهم، لذا يمكن أن نسمي هذه المدة بالجاهلية الأولى لما فيها من حيدان وانحراف عن منهج الله الذي أنزله على الرسل الذين بعثوا إلى شعوب تلك المدة من الزمن.

٢ ـ **التاريخ الإسلامي**: ويشمل حياة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وقد سار الخلفاء على النهج الذي رسمه الرسول الكريم، لم

يحيدوا عنه قيد أنملة، وبعد ذلك بدأت زاوية الانحراف تظهر منذ انتهاء العهد الراشدي، وبدأ مع الزمن يزداد انفراج زاوية الانحراف شيئاً فشيئاً في العهدين الأموي والعباسي، حتى طغت على الدائرة كلها في نهاية الدولة العباسية. ويمكن أن نلاحظ أن تسجيلنا للتاريخ يجب أن يكون قبل الإسلام بأعوام قبل الهجرة، والتاريخ الإسلامي بالأعوام الهجرية فقط، ليكون لنا تاريخنا المستقل وشخصيتنا المتميزة.

٣ ـ **التاريخ الحديث**: وهو مرحلة الجاهلية الثانية، حيث انحرف الحكام عن النهج الإسلامي، وبدأت الحكومات تتخبط في الفوضى والجهل، وتسير بالتبعية، وإن كنا لا نستطيع أن نعد جميع الحكام بمستوى واحد، فلربما كان بعضهم أقل انحرافاً من بعضهم الآخر، وقد حكم في هذه المدة المماليك والعثمانيون ومن جاء بعدهم. وإن ظهر أحد منهم بالصلاح والعمل لمصلحة الرعية إلا أنها كانت أياماً قليلة ثم لا تلبث الجاهلية أن تتحكم بالأمر. ومع الأسف فقد اتخذ التقويم الميلادي تقويماً في هذه المدة، الأمر الذي أحدث ازدواجية في تسجيل تاريخنا بصورة عامة، إذ نسجل الأحداث حتى نهاية الدولة العباسية على أثر سقوط بغداد بيد المغول عام ٦٥٦هـ بالتقويم الهجري، ونسجل بعد ذلك بالتقويم الميلادي، وكذلك المدة التي سبقت هجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

هذا التاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي، وبينهما فرق جوهري، فيجب أن نفصل أحدهما عن الآخر لتتوضح عندنا الرؤية، ولنتميز بشخصيتنا التي حرص بعضهم على إلحاقها بالغرب. واستمر ذلك مدة ليست قصيرة من الزمن. كما يجب أن نرسخ هذه الفروق بين الأجيال لتتمسك بتاريخها، وتعتز به، ويجب أن نوضح المعاني الحضارية التي عمل أسلافنا من أجلها، وتوصلوا إلى أزهى الحضارة، وقد خدموا بها العالم، فأسرعوا في تقدمه أشواطاً إلى الأمام.

ومن خلال هذا فإننا سندرس التاريخ الإسلامي على النحو التالي:

١ ـ قبل البعثة.
٢ ـ السيرة.
٣ ـ الخلفاء الراشدون.
٤ ـ الحكومة الإسلامية.
٥ ـ العهد الأموي.
٦ ـ العهد العباسي.
٧ ـ عصر المماليك.
٨ ـ الدولة العثمانية.
٩ ـ العصر الحديث.

وعلى هذا فإن تاريخ العالم إنما كان تاريخاً جاهلياً سيطرت عليه الجاهلية بكل مفاهيمها وقيمها باستثناء مدة وجيزة هي: عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، تغيَّرت فيها المفاهيم والقيم، وتبدَّلت الأرضية التي يعيش عليها المجتمع، ثم لم تلبث أن عادت الجاهلية تسيطر شيئاً فشيئاً حتى عادت لها هيمنتها في النهاية.

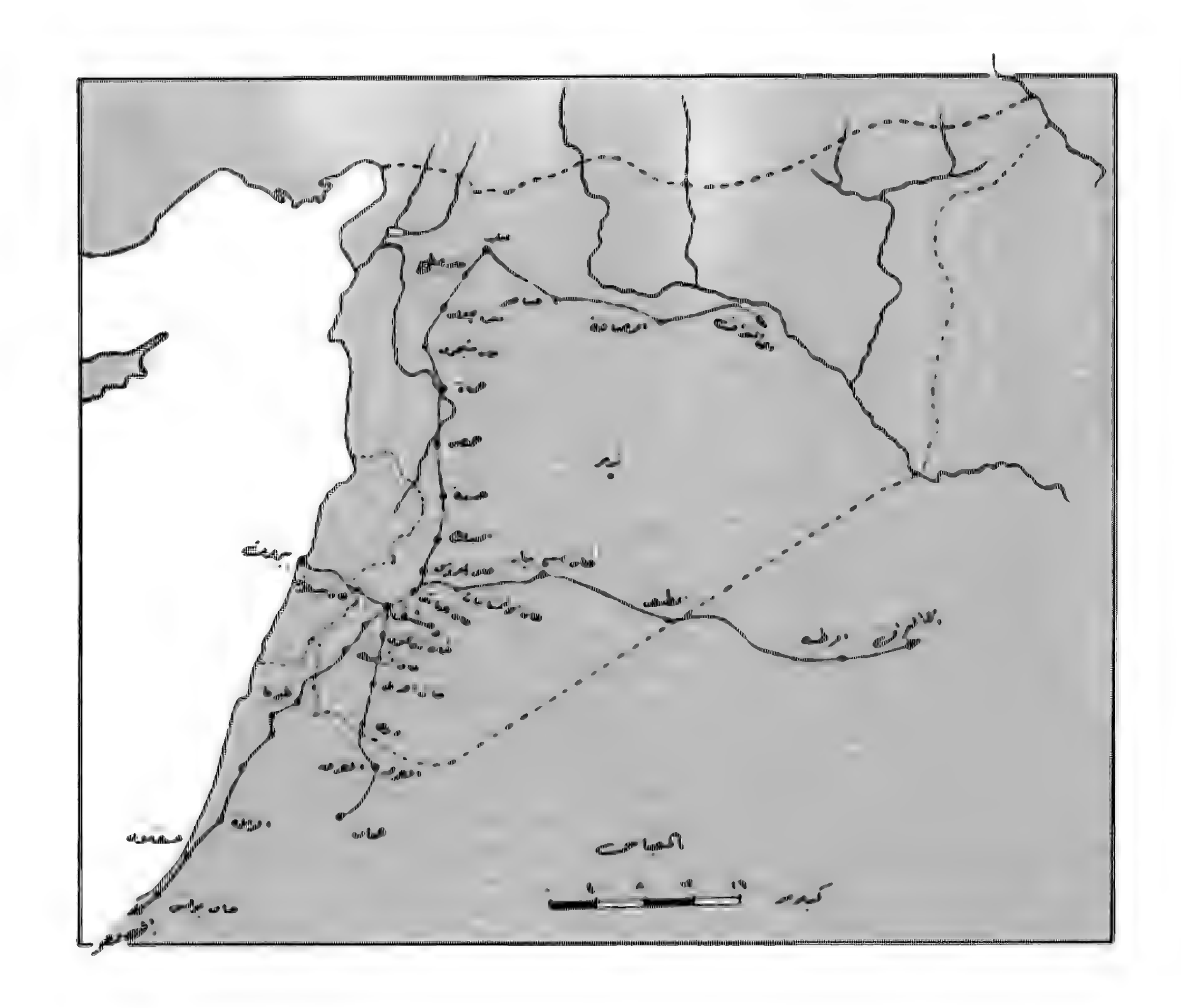
ولا يزال التاريخ ـ وبخاصة القديم منه ـ يأخذ مقتطفات من سجل هذه المنطقة ومن تلك، الأمر الذي يبدو فيه كثير من الفجوات، إضافة إلى أن هناك تعارضاً بيّناً بين ما يخطه المؤرخون الماديون من خلال نظرتهم إلى الحياة، ويفسرون كل شيء من خلال تلك النظرات، ويعدونه حقيقة، ويقدمونه للمجتمعات من خلال آرائهم، وبين الواقع الذي عاشه البشر في تلك المدة، والذي أشارت إليه بعض الآيات التي وردت في كتاب الله عن الأقوام الماضية التي خالفت أوامر الله، ورفضت دعوة رسلها، لذا فقد أخذهم الله بذنوبهم، وعاقبهم على ما اقترفوه من ذنوب، وما تلك الإشارات الواردة في القرآن بتاريخ مفصل عن منطقة ما، وإنما إشارة إلى حوادث تاريخية فيها العبرة والذكرى من خلال إيرادها، وهي تعطي ضوءاً على التاريخ.

ولقد حرصت أن أملأ تلك الفجوات الموجودة، وأن أتلمس حوادث

التاريخ من خلال الإشارات الواردة في كتاب الله، وأن أضعها ضمن إطارها بحيث لا تخرج عن واقعها، الأمر الذي جعلني أضع هذا القسم تحت العنوان العام (التاريخ الإسلامي) على الرغم من أنه كان قبل الإسلام، وأقصد بذلك التسجيل لهذه المدة من حياة البشر من وجهة نظر إسلامية، وتأريخاً للجماعات التي جاءتها رسلها المعروفون، فما كان القرآن لترد فيه حوادث غير واقعية، وإنما يذكر أحداثاً تاريخية صحيحة لها سجلها في حياة البشر، وفيها العبرة لمن أراد أن يعتبر.

ونرجو من الله أن أستطيع تقديم خدمات لهذا التاريخ الذي وطدت العزم على إصداره ـ إن شاء الله ـ وأن يكون هذا حافزاً لغيري كي يتوسع في هذا المجال، وأن يقدم لأمته ما ترجوه ـ فأنا لا أدعي أنني قمت بعمل جليل كبير، وإنما قدمت الخطوط العريضة ليتوسع فيها أهل العلم وأصحاب الاختصاص ـ مع العلم أنني لن أتقيد بالروايات التاريخية الكثيرة المتشعبة التي وردت في بطون أمهات الكتب، وذلك لأن أولئك المؤرخين قد أجهدوا أنفسهم كثيراً فيما سمَّوه بالأمانة العلمية، فنقلوا إلينا كل ما وصل إليهم من أخبار، لذلك جاءت روايات كثيرة متناقضة أحياناً، وأكثرها يخالف رأي الحكام القائمين آنذاك، ويظهر أنها جاءت من خصومهم السياسيين الذين حرصوا على إشاعة هذه الروايات وتسجيلها أكثر من المسؤولين الذين أهملوا وجهة نظرهم، كما أن الحكام قد شجعوا وروّجوا الروايات التي تطعن بمن سبقهم ليبرروا قيامهم هم، ويرفعوا أنفسهم عليهم، لهذا فالروايات كانت بحاجةٍ إلى تحقيق وتدقيق، وتطبيق منهج علماء الحديث على الرواة «الجرح والتعديل»، وسأقبل كل ما طبق على الروايات من هذا المنهج، وسأرفض كل ما سواها، وسيكون الإيمان رائدنا في البحث ما أمكننا ذلك.

وأخيراً نرجو أن تكون أعمالنا خالصة لله، وأن يكون سبحانه وتعالى عوننا في كل عمل فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلاَّ به.



الأمّة المُسْلِمَة

لما كنّا نؤرخ للأمة المسلمة فلا بدّ من أن نعطي فكرة عن الأمة وبنائها وعامل تكوينها قبل أن نبدأ بتسجيل تاريخها، ونعطي فكرة عن عقيدتها في التاريخ.

الأمة جماعة من الناس عاشت بعقيدةٍ واحدةٍ على مدار التاريخ، فما دامت العقيدة مستمرةً قائمةً فالأمة موجودة، فالجماعات الذين اتبعوا الأنبياء الذين بعثوا على طول الزمن من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ، وعاشوا بعد ذلك حسب هدي آخر الأنبياء حتى يرث الله الأرض ومن عليها، واعتقدوا بخالقهم، وآمنوا بما أنزل الله إليهم من ربهم، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وطبّقوا ما جاءتهم به رسلهم من نور، يؤلفون أمّةً واحدةً على مدى هذا التاريخ، فهم جميعاً يعتقدون عقيدةً واحدةً، ويسيرون على نهجٍ واحد؛ هو النهج الذي أتى به رسل الله، فربهم واحد، وفكرتهم واحدة، وهم مستسلمون لأمر الله، مسلمون لما بعث، وبما قضى. هذه الجماعة هي الأمة المسلمة التي تتميز عن غيرها بفكرتها التي تعيش بها ومن أجلها، فالله سبحانه وتعالى بعد أن يُعدّد رسل الله والصالحين من عباده يقول: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

ولا ترتبط الأمة المسلمة ببقعةٍ معينةٍ من الأرض، وإنما ساحة عملها الأرض كلها، فحيثما تمكنت من إقامة حكم الله فذلك مقرها الأول ونقطة

(١) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.

انبعاثها، وبعد ذلك تتوسع دائرتها منه بالدعوة ونشر الفكرة حتى تشمل الأرض جميعها، وما دامت لا تعمّ الفكرة الأرض كلها، ولا تحكُم كافةً بما أنزل الله فمهمة الأمة باقية، وعليها واجب كبير، وهو الجهاد في سبيل الله، حتى تتمكن من تطبيق منهج الله في الدنيا قاطبة. والأرض في نظر الإسلام قسمان:

١ ـ دار الإسلام: وهي البقعة من العالم التي يطبق فيها منهج الله، وإن لم يكن سكانها جميعهم من المسلمين.

٢ ـ دار الكفر: وهي المنطقة من الأرض التي لا تحكم بما أنزل الله ولو كان سكانها كلهم من المسلمين. وليست دار الكفر دار حرب، وإنما دار الحرب جزء من دار الكفر، أعلن إمام المسلمين عليها الحرب وأجاز فيها إجراء أحكام دار الحرب. وتنقلب دار الكفر إلى دار حرب إذن بإذن الإمام، تحت ظروف خاصة منها: الوقوف في وجه الدعوة، والضغط على المسلمين، أو تعريف الأعداء على ثغراتهم، وإعلان الحرب عليهم و. . . المسلم الموجود في دار الكفر عليه واجب الدعوة، والعمل على نشر الفكرة، والتمكين للمسلمين، ولا يهاجر أحد من هؤلاء المسلمين القاطنين في دار الكفر إلا في حالات:

١ ـ إذا احتاج المسلمون إليه في دار الإسلام ـ إن وجدت ـ حاجة فردية أو عامة، وتقتضي الدعوة وجوده هناك.

٢ ـ إذا كان لا يستطيع إقامة شعائره في دار الكفر، فعليه آنذاك الهجرة والالتحاق بدار الإسلام ليعيش بين المسلمين، يقوم بدوره، ويؤدي عبادته هناك، فأي شيءٍ يمكن للمسلم أن يتساهل فيه سوى العبادة فإنه لا يمكنه أن يتركها أبداً، أو يتساهل فيها، وهو مسلّم بقواه العقلية. أما ما يقوله بعض ضعاف النفوس: من كتم الإيمان والتقية فيجب ألا يصل إلى العبادة أبداً، ولا إلى ما حرم الله، أو تحريم ما أحل وإحلال ما حرم، فإن وصل إلى ذلك فهو الكفر البواح.

٣ ـ إذا طرد من دار الكفر وأجبر على المغادرة(١).

ولا ترتبط الأمة بالأصل، فالخلاف يحدث بين أبناء الأصل الواحد إذا ما كانوا على عقيدتين متباينتين، فلقد حدث الخلاف على أشده بين المسلمين من العرب وأبناء جلدتهم المشركين وأفراد قبيلتهم قريش، وحتى أولاد عمومتهم وإخوتهم وأبنائهم، وكم التقى سيفان أحدهما بيد الأب والآخر يحمله الابن، فرَّقت بينهما العقيدة وباعد بينهما الفكر. وما كان الخلاف إلا بسبب العقيدة، إذ لم يكن الأصل ليربط بين أتباع عقيدتين، أو ليجمع بين جماعتين مختلفتين في الفكرة وينتمون إليه مهما كانت الخلافات واهية والأسباب بسيطة، ولا توجد مرحلة من مراحل التاريخ إلا وفيها النماذج الكثيرة من الخلافات الكبيرة التي قامت بين أبناء العقائد المتباينة، والذين يرتبطون بأصل واحد بل وقبيلةٍ واحدةٍ، وعشيرةٍ واحدةٍ، وأسرةٍ واحدةٍ.

ولا ترتبط الأمة باللغة، فاللغة لسان مجموعة من الناس، قد يلتقون بأصلٍ واحدٍ، وقد يوحِّد بينهم فكر خاص، فإذا كان الأصل هو الذي يجمع انطبق عليها ما انطبق عليه، وما الصراع الدائم الذي يقع بين أبناء الشعب الواحد إلا نتيجة خلاف العقيدة. ويمكن أن نلحظ على مدى تاريخنا أن أفراداً نلتقي وإياهم بالأصل، ونفترق بالفكر والعقيدة. نجتمع بطرفٍ من اللسان الذي أوجده الأصل، ونختلف بطرف آخر وهو ما فرقتنا فيه العقيدة، فيبقى الطرف الثاني هو الغالب، وهو المتميز باستمرار، فمنذ صدر الإسلام كان أغلب التراجمة من الفارسية وإليها ممن يدين بالمجوسية، ويتفق مع الفرس بالمبدأ، لذا حرص على تعلم لغتهم، ويترجم من الرومية وإليها من يعتنق النصرانية ويلتقي مع الروم بالعقيدة، لذا حرص على تعلم لغتهم،

---

(١) ولا يترتب على هذا التعريف في الوقت الحاضر أي إجراء عملي متعلق بالأحكام الفقهية لدار الإسلام أو دار الكفر؛ لأن الطرف الأول غائب اليوم عن سطح الأرض، والعلاقة متبادلة بين الطرفين. فإن غاب طرف اقتضى غياب الأحكام بالنسبة إلى الطرف الثاني. ومن المعلوم أن المواقف العملية لتطبيق الأحكام الفقهية بدار الإسلام ودار الكفر إنما يتخذها إمام المسلمين، وليست عامة أفراد المسلمين بصفتهم الفردية.

واستمر ذلك حتى عُرِّبت الدواوين أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وحتى في العصر الحديث نجد أن أكثر من استعملته فرنسا في بلاد الشام الشمالية ممن كانوا يجيدون لغتها وهم ممن كانوا يعتنقون عقيدتها، ولارتباطهم بالعقيدة بعد تعلم لغتها، على حين لم يفعل ذلك من لا يتصل بها بفكرة، ولا يلتقي معها بمبدأ، ولو فرضت اللغة الفرنسية على الشعب لما أقبل عليها أحد سوى أبناء دينها، اللهم إذا استثنينا أصحاب المصالح وأرباب التجارة، وما استعملته فرنسا في مناطق نفوذها سارت عليه إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا وبلجيكا والبرتغال وألمانيا وهولندة وروسيا في الجهات التي سيطرت عليها. إن الذين يعتنقون عقيدة أمة يحرصون على تعلم لغتها، وهذا ما نشاهده في أكثر أرجاء العالم الإسلامي، وهو أن أكثر الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية فكراً، ويتخذونها منهجاً، ويسعون في تطبيقها على أنفسهم، وعلى أسرهم، وعلى مجتمعاتهم، إنما يتعلمون العربية، ويحرصون على التحدث فيها على أنها لغة القرآن الكريم أي: لغة العقيدة التي يدينون بها، فاللغة إذن: لغة العقيدة، وليست لغة الأصل الواحد التي نشأت على أرض معينة، وارتبطت بالبشر الذين عاشوا على تلك الأرض، وتطورت معهم أو واكبت اللغة الأصل على مر الزمن ـ حسب زعم بعضهم ـ.

وليس التاريخ بأكثر ربطاً للمجتمعات من اللغة، فالتاريخ أصلاً تاريخ الأمة، والأمة مرتبطة بالعقيدة، فالتاريخ يتحدث عن البشر الذين يحملون تلك العقيدة، ومن منطلق العقيدة تُرسم الخطوط العريضة للتاريخ، فالمراحل التي تطبق فيها العقيدة يراها أتباعها ما داموا من حملتها، ومن المتأثرين بها، والداعين لها، والحريصين على تطبيقها أنها مراحل شموخ وارتفاع يجب أن يقتدى بها، ويسار على نهجها، وأن رجالها مثل أعلى من الضرورة بمكان الاقتداء بهم، والتركيز عليهم لتلقين ذلك للأجيال، لترسيخ المعاني في النفوس، على حين يرون أن الفترات التي لم يطبق فيها منهج العقيدة فترات ضعف وانتكاس وتراجع وتأخر، وأن رجال ذلك الزمن لم يكونوا على مستوى المسؤولية، لذلك لم يستطيعوا أن يطبقوا ما اعتقدوا، ولا أن يسيروا على الخط الذي تفترضه عليهم عقائدهم، لذا فقد تعبوا

وأتعبوا، وسببوا ضعفاً في كيان الحكم، تأثرت الأمة بسببه، فوهنت وضعفت شوكتها، وأطمع ذلك الأعداء فيها، لذا تكون هذه الأيام في زوايا ميتة من التاريخ، ويحاولون عدم التركيز عليها والإقلال من شأنها. فالتاريخ الإسلامي لم يصل في مرحلة من مراحل قوته إلى ما وصل إليه أيام رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدين من بعده، فأول سبب الضعف بعد ذلك إنما يعزى إلى بدء الانحراف عن العقيدة التي يؤمنون بها، وعن السياسة التي سار عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده، والتي تنبع من عقيدتهم، ومع استمرار الانحراف، وزيادة انفراج زاوية ذلك الانحراف زاد الضعف، حتى إذا زاد الانفراج استسلمت الأمة فوقعت أمام أعدائها. فسقطت بغداد عام ٦٥٦هـ بيد المغول، وسقطت غرناطة بيد الإسبان عام ٨٩٨هـ، وتجزأت بعد ذلك أشلاء الأمة، وتفرَّقت كلمة المجتمع، والتاريخ الإسلامي يُدرس في بلاد المسلمين جميعاً، وبخاصة سيرة رسول الله ﷺ وتاريخ الخلفاء الراشدين، يدرس عند أصناف متعددين من البشر، وأجناس متغايرين تجمع بينهم العقيدة، ولا يدرس على أنه تاريخ عربي نشأ على أرض عربية، وحملت تلك الرسالة جماعة من العرب إذ لا يجمع بين تلك الأجناس والعرب جامع، ولا تربط بينهم وشيجة سوى الإسلام، ولولا ذلك لما درسوا ذلك الجزء من التاريخ.

وأما العادات والتقاليد والمفاهيم والحضارة والثقافة وما إلى ذلك من جوانب فكلها تنبع من العقيدة التي توجهها بالشكل الذي تفرضه، وتقيِّدها بالنهج الذي ترسمه، فللبناء أسلوبه الخاص، وللزخرفة شكلها المعين، وللأفراح طابعها، وللأحزان مراسيمها، وللتعليم طريقته ومنهجه وحتى التحية، والاحتفال، والاستقبال، والسير، واللباس، وكل القضايا الاجتماعية تتدخل فيها العقيدة، وتفرض عليها صفةً خاصة، وسمةً معينة.

وأما ما عرف حديثاً باسم العامل الاقتصادي، أو المصلحة الاقتصادية التي تجمع بين المجتمعات، أو العناصر التي تكون أمة، فهذا أضعف العوامل أثراً، وأقلها شأناً، حتى في العوامل التي يتبناها المنحرفون

وأصحاب المصالح، فتبقى في مستوى المصلحة فتتغيَّر معها، وتسير تبعاً لها، وتتذبذب حسبها، وما أكثر تغيرات المصلحة وتبدلاتها.

وليست هذه العوامل التي يقال عنها إنها تكوّن الأمة ـ باستثناء العقيدة ـ إلاَّ عوامل طرحت على الشعوب الضعيفة، أوجدتها الجهات الأجنبية التي فرضت سيطرتها على هذه الشعوب ـ كما ذكرنا ـ ففرضت معها آراءها، أو توجيهاتها فأخذها تلامذة الغرب وعملاؤه والمفتونون بحضارته المادية، ولا يقصد من ذلك سوى زعزعة المسلمين عن عقيدتهم، وإبعادهم عن مواقعهم التي يحتلونها.

وسنؤرخ للأمة المسلمة، بغض النظر عن الأفكار الدخيلة، والآراء المستوردة. على الرغم من سيطرتها على بعض العقول، وتسلطها على بقاع عديدة، الأمر الذي جعل هوة سحيقة بين الحاكم والمحكوم، حتى إن المتأمل من بعيد ليظن أن هذا رأي الأمة جمعاء وعقيدتها المستحدثة، وذلك بسبب سيطرة الأفكار الغريبة على هذه الأمة، والواقع أن هذا ليس إلا رأي فئة قليلة، تمكنت من السيطرة بواسطة من سبقها، فملأت الدنيا صراخاً بهذه الأفكار المستوردة.

الخلق الأول

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يخلق على هذه الأرض مخلوقاً يكون مستخلفاً فيها، يملك زمامها، وتُطلق يده فيها، ويكشف عما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات، وقد سخَّر الله لهذا المخلوق كل ما في هذه الأرض، حتى يتمكن من القيام بعملية الاستخلاف المنوطة به، ولا يهمنا هنا أن يكون هذا المخلوق هو أول من وجد على الأرض أم وجدت مخلوقات أخرى قبله، أفسدت وسفكت الدماء، أم أن الجنّ هم الذين فعلوا هذه الفعلة الأمر الذي جعل الملائكة تتساءل أمام الله ـ وقد عرفت ما حدث ـ فتقول: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]، ولكن المهم هنا أن هذا المخلوق قد وجد، وهو آدم عليه السلام، وهو أول المخلوقات من البشر التي ننتمي إليها نحن، ونتصل بأنسابنا إليه.

ولقد كرم الله هذا المخلوق بأن وهبه العقل الذي يفكر فيه، وبه يختلف عن باقي المخلوقات، الأمر الذي يجعله باستطاعته التمييز بين الخير والشر، والنافع والضار، ويتوقع النتائج التي تؤدي إليها الأعمال التي يقوم بها، هذا التمييز هو الذي يجعلنا لا نطلق عليه اسم حيوان ناطق، فالنطق أمر ثانوي فالببغاء تقلد البشر، وبعض الحيوانات يحاكي الإنسان ببعض التصرفات، ولها أصوات هي نطقها، وطريقة تخاطبها بعضها مع بعض، وأسلوب تعايشها وتفاهمها، فالإنسان إذن مخلوق عاقل، وبالعقل وحده يتميز، ويفترق عن بقية المخلوقات.

ولقد كرّم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثانيةٍ بأن خلقه على أجمل

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

صورة وأكرم خِلقة، وأوجد فيه عنصر الحياء، فهو يسكن إلى أهله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1]، ويتوارى عن الأعين فيما يقوم به من حاجات خاصة يختلف بذلك اختلافاً بيّناً عن باقي المخلوقات التي تمارس أعمالها الجنسية أمام أسرابها، وتقضي حاجتها أمام فصائلها.

ولقد كرّم الله هذا المخلوق من ناحيةٍ ثالثة بأن جعله منذ بداية خلقه ساتراً عورته، ناطقاً يجيد التحدث، على عكس الصورة التي يعطيها الماديون للإنسان القديم التي تجعل أباهم وأولهم أكثر بدائية منهم، إلا أن الإنسان الذي يتكلمون عنه إنما هو الإنسان الذي تقوقع على نفسه في مجاهل الغابات، أو اعتكف في فيافي الصحراوات، وله وضعه الخاص الذي نتعرض له باختصار، ولا يستنتج من وضعه أنه صورة عن الإنسان القديم، فهذا بيئته أثرت فيه، وذلك خلقه أوجد فيه. إن أصل الإنسان واحد، وهو آدم عليه السلام ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾[2]. ولقد كان الإنسان منذ ذلك اليوم كاملاً في شكله الجمالي، وعلى الصورة التي نراه عليها اليوم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[3]. ونلاحظ أن أجسام الفراعنة المحنطة وقد مضى عليها ما يقرب من أربعة آلاف عام، وهي بصورة إنسان اليوم لا تختلف عنه بشيء إلا بالطول الذي يتحدث عنه بعض الناس والذي كان للإنسان القديم، إذ كان العمالقة في بعض جهات جزيرة العرب، واختلفوا بأطوالهم لا بأشكالهم، ولكن انتهوا قبل ألفي عام قبل الهجرة، كما لا يختلف بتطوره الذي يتحدث عنه أصحاب نظرية التطور. وكان آدم عليه السلام منذ أول خلقه يجيد النطق، ويحسن الكلام، ويعرف التعبير ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

---

(١) سورة الروم: الآية ٢١.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) سورة التين: الآية ٤.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

وكان الإنسان الأول وذريته من بعده، يستر جسمه، ويخفي عورته، هكذا خلق الله آدم، ولكن الشيطان غرَّر به وبزوجه حواء حتى ذاقا الشجرة التي نهاهما الله عنها فبدت لهما سوآتهما حيث عرَّاهما الله من اللباس الذي كساهما إياه قبل الذنب والخطيئة، فسلبهما ذلك بالخطيئة التي أخطآها، والمعصية التي ارتكباها، وعندها جعلا يشدَّان عليهما من ورق الجنة ليواريا سوآتهما، ويخصفان عليهما من هذا الورق كهيئة الثوب ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2]. فالله سبحانه وتعالى قد أنزل على الإنسان اللباس بأن خلقه لهم أو دلهم على صناعته وذلك ليواري به السوأة. ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[3]، وإذا فسَّر بعضهم اللباس بالمطر إلا أنه قال: الذي يُنبت القطن والكتان، ويقيم البهائم التي منها الأصواف والأوبار والأشعار.

أما الجماعات البدائية التي تعيش في مجاهل القفار والغابات اليوم فليست من مخلفات الإنسان القديم الذي يتصوره الماديون، وينقلون صورته إلى الأطفال لينشؤوا في بُعدٍ عن عقيدتهم التي تصور لهم المخلوقات على الصورة نفسها التي يرونها اليوم. لقد كانت هذه الجماعات جزءاً من أقوام رسل الله الذين بعثوا لهدايتها، فأبوا الدعوة، ورفضوا الفكرة، ووقفوا في

---

(١) سورة البقرة: الآيات ٣١ ـ ٣٣. (٢) سورة الأعراف: الآيات ١٩ ـ ٢٣.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

وجه نبيهم، وعتوا عن أمر ربهم فسلط الله عليهم من يحاربهم ويلاحقهم من مكان إلى مكان، فلو كانت هذه الجماعات منعزلة في مواطنها، متقوقعة في مواضعها من الأصل الذي وجدت فيه، لكان المعنى أن أصول البشر متعددة، وهذا ما يخالف العقيدة الإسلامية بل الديانات السماوية كلها، ولو وجدت من الأصل هناك لجاءها هاد، وإلا لما كان عليها حساب ولما حق عليها العذاب ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾[1]، إذ ما من قوم إلا وجاءهم بشير ونذير. فآدم عليه السلام كان يعلم أبناءه وأحفاده التوحيد ويبلغهم دعوة الله، واستمرت هدايته، حتى كان (شيث) و(إدريس)، ثم كانت دعوة نوح عليه السلام، وهكذا فبداية الخلق لها دعاة وهداة، وفيها قول وتعبير وأسلوب، وللبشر لباس، وسترة، وأدوات تستعمل، واجتماعات يدعى لها الناس، وأحاديث تدور فيها، فمن الجماعات من هدى الله، وقبل دعوة الرسل، وسار حسب إرشاداتهم وتعليماتهم فكانوا أن استخلفوا في الأرض وعمروها حتى حين، وأخذوا من خيراتها، واستفادوا من كنوزها، حتى عتوا عن أمر ربهم، ومن الجماعات من ركب طريق الضلالة أصلاً، وسار على درب الغواية، فكتبت عليه الشقوة، وحبطت أعماله في الدنيا والآخرة، وما له من ناصرين، ووقعت في حمأة الجهل إذ ردَّت دعوة الله، فسلط الله عليها من يسومها سوء العذاب، ويلاحقها ويقاتلها ويفتك بها، وهي تفر أمامه، ولكنها أينما انتقلت تراه وراءها يجتاز خلفها اليم، ويقطع الفيافي، ويرتقي المرتفعات، حتى دخلت في أماكن مجهولة، أو مناطق نائية لا تصلح لسكن البشر، فأقامت فيها، وتفرقت بطونها بين مجاهلها، وهناك ذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً، إذ أعد الله لهم عذاباً شديداً.

ولما كانت مناطقها التي وصلت إليها حديثاً لا توجد فيها حاجاتها الأساسية من طعام ولباسٍ ومأوى، اضطرت أن تتخذ مما تقدمه لها تلك البيئة من مواد، فمن أقام منها في المناطق الحارة لم يكن بحاجةٍ إلى

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

اللباس فظل عارياً، وإنما ستر عورته بلحاء الشجر وأوراقه، ومن عاش منها في البلاد الباردة اتخذ من جلود الحيوانات التي وجدها هناك، واقتات بها لباساً وريشاً، وكما استفادت من موارد بيئتها في اللباس، استفادت منها كذلك في الطعام والسكن، فهذا الإنسان الذي عاش في المناطق الحارة قد عاش على جمع الثمار، والتقاط النباتات والجذور الدرنية، وسكن جذوع الأشجار، وعلى أغصانها، وبنى من أطرافها أكواخاً على فروعها، وذاك الذي عاش في المناطق الباردة قد أقام حياته على لحوم الحيوانات، واتخذ من عظامها أدوات له، وبنى من الثلج له كوخاً، يأوي إليه شتاءً، وفي الصيف من الجلود والإهاب أقام خياماً يسكن فيها، ويجمع صيده.

ولما كانت هذه الجماعات قد وجدت في أماكنها الجديدة التي حلت فيها أشجاراً غير التي اعتادت أن تراها في بيئتها القديمة، وعرفت نباتات لم تكن تعرفها من قبل، وتعرضت لحيوانات لم تكن تتعرض لها في السابق، لذا فقد أطلق كل بطن من القبيلة على هذه الأشياء أسماء خاصة يعرفها هو لا سواه، ويدعوها بها دون غيره، ومن هنا لم تعد تعرف بعض البطون لغة بعضها الآخر، بل عاش كل في متاهاته، وضلَّ كل في مجاهله.

ولما كان كل فرد يعيش لنفسه ضمن أسرة صغيرة قد لا تتعدى الزوج وبعض الأولاد، ولما كان كل يسير في بقاع مجهولة ليحصل على قوته وليؤمن غذاءه، يسير وحده في أغلب الأحيان، ويرى أنواعاً عديدة لم يرها من قبل، سواء أكانت من الحيوانات أم من النباتات، فكان يعطيها صفة خاصة، أو اسماً معيناً، لا يعرفه إلا هو بالذات، فكان يصفه لأسرته بالإشارات، أو يحدثهم عنه بالصفات، فكان أن ضاعت لغة التفاهم فيما بينهم، وسادت لغة الإشارات والأصوات، أو بعض الكلمات التي يعرفها بطن من قبيلة، وأقلها ما تعرفه القبيلة كلها.

وظلت حالة هذه الجماعات إلى هذا العصر تعيش منعزلة في بقاعها عن العالم، مبتعدة في مناطقها عن بقية الشعوب، متقوقعة على نفسها، فنشأت عندها مع الزمن عادات خاصة وتقاليد تنفرد بها عن غيرها، ينظر إليها بعض الناس الآخرين على أنها نوع من البساطة الموغلة في التأخر حتى لتقترب من صفات بعض الحيوانات التي تعيش مجاورة لها، أو كل

منها يقترب من الآخر في مسكنه، ويسابقه في مرتعه وتسلقه على الأشجار، ومن كان منهما أمهر افترس الآخر، ومن كان أكثر قدرة على الحركة أو أسرع في عدوه اتخذ من الآخر وجبة طعام شهية له، فملأ بها بطنه بحيث لا يستطيع بعدها المشي إلا ببطء؛ لأنه لا يعرف متى يحصل على وجبة ثانية، فقد تطول به الساعات حتى يظفر بصيد.

وإذا كانت تلك الجماعات التي يسمونها بدائية لأنها تعيش على درجة من البساطة في مأواها ولباسها، في عاداتها وطعامها، فإن هناك جماعات أخرى تعيش بين أهل الحضارة ولكنها موغلة في البدائية في تفكيرها أكثر من تلك بكثير، ولو أنها تلبس الرياش وما يكتسيه أهل المدن من حُلل، وتتغذى بأنواع الطعام وما اعتاد عليه أهل الحضارة من غذاء، وتسكن القصور وأحسن الأبنية التي أشرف عليها كبار المهندسين، فالبدائية في التفكير أشد مرارة من البدائية في اللباس أو السكن، إذ أن هناك أناساً يلبسون كما نلبس، ويأكلون كما نأكل، ويسكنون حيث نسكن، ولكنهم لم يخرجوا من دائرة رسمها حولهم طفل صغير بعصا يعبث بها ويلهو، ويبقون فيها ما شاء لهم تفكيرهم أن يبقوا حتى يفتحها لهم غيرهم بخطٍ أو بإشارة.. إن هؤلاء لأشد بدائية ولو كانوا في ثياب المدنية، ومن هذه الجماعات من احتفظ بأفكار البدائية عنده ممزوجة بالأساطير والخرافات، إذ لا يزالون يقدسون الحيوانات وبخاصةِ الأبقار، فيتبركون بروثها، ويدّهنون ببولها، إذا وقفت إحداها بالطريق تعطلت حركة المرور، ويزيد الأمر على ذلك فكل المخلوقات مقدسة في نظرهم، إذ في أرواحها كنه التقديس وجوهره، وإن الأعضاء التي تسبب الإنجاب والتواجد هي مصدر إيجاده، لذا أقيمت لها المعابد، وأوجد لها أماكن خاصة بها تمثل فيها هذه الأعضاء مجسمة، وليست هذه المجموعة كبقية الشعوب البدائية. قليلة العدد، صغيرة الحجم، معزولة في رقعة من الأرض، مجهولة بين أمم العالم، بل هي مئات الملايين، تحتل أراضي واسعة، وتسكن بقاعاً ذات أهمية، ولها مركزها بين دول الأرض. ومن هذه الجماعات من كان مسلماً، فعندما حدثت خلافات في المجتمع الإسلامي أيد طرفاً، وتطرف في حبه حتى عبَدَ إمامه، ثم اعتقد

أنه حلّ بالقمر أو حلّ بالشمس، وكانت عقيدته مجموعة أمور باطنية مستمدة من اليهودية، والفارسية المجوسية، والأساطير الإغريقية، والفلسفات النظرية، ثم انكفؤوا على أنفسهم وسط مجتمعهم يظهرون الإسلام ويبطنون غير ما يبدون، ويحرّمون على أنفسهم ما أحل الله لهم من بعض الطيبات، ويحلون لأنفسهم ما حرم الله عليهم من النساء، إذ يعدون أن المرأة لا دين لها، بل هي سلعة تباع وتشترى، وتقدم وتهدى، ويتاجر بها، وهي الواسطة المبررة للوصول إلى الغاية، وهؤلاء ليسوا بالقلة أيضاً، إذ يزيدون على المليون، ويقبعون في مناطق جبلية. ومن هذه الجماعات من عبد إلهاً شخصاً، وأدخل في عقيدته النظريات الفلسفية، وانكفأ على نفسه يبرر الأعمال التي يقوم بها، وهذه الجماعة لا تقبل في عدادها جديداً، إذ أن الباب قد أغلق ـ حسب رأيهم ـ. كما أن هناك جماعات كبيرة تعتقد أنها شعب الله المختار، وليس عليها في الأميين من سبيل، ولا وزر عليهم بما يفعلونه مع الآخرين، وأن ديانتهم قد اقتصرت على أتباعها ولا مجال لغيرهم. ولكن هذه الجماعات من بدائيي الفكر لا يسميها الماديون بدائية، وذلك لأنهم يشتركون وإياهم في الجاهلية بالبعد عن العقيدة الصحيحة، ويجتمعون وإياهم على الضلالة والفساد وارتكاب المنكرات، الأمر الذي يدل على أن الماديين في جاهلية، إذ يلتقون وبدائيو الفكر على صعيد واحد، على حين يسمون بدائيي المسكن واللباس بدائيين، لأنهم لا يجتمعون وإياهم في المفاسد، لأن البدائيين منعزلين عنهم، بعيدين عن اللقاء بهم.

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء، وأوقعهم في حمأة الجهل. فضلّ هؤلاء بعقولهم، وتاه أولئك في مواطنهم.

هؤلاء وأولئك قد أركسهم الله لعقيدتهم الخرقاء، وأضلهم الله باتباعهم أهل البغي، فعبدوا الإنسان وألّهوه، أو قدّسوا الحيوان وأنزلوه منزلة الإله.

إذن يعيش اليوم في العالم أنموذجان من الجماعات البدائية، الأول منهما بدائي في طرق حياته يعيش في بيئات واسعة منعزلة، والثاني منهما بدائي في طرق تفكيره يحتك مع الماديين ويشاركهم في أعمالهم، ويدعمهم في السيطرة على بلاد كثيرة، ويستفيدون منه في تسلّطهم، ويكونون معاً أداة في تحكم الجاهلية.

خطوط عريضة

وجد آدم عليه السلام على أغلب الظن في جنوب غربي آسيا، وفي جزيرة العرب على أكبر احتمال، وإن كانت هناك آراء تقول: إنه وجد في الهند، وأخرى تنادي بأنه كان في أول أمره في شمالي العراق.

وبدأ البشر يتكاثر في منطقة الخلق الأول، ويزداد عددهم بسرعة، ومن هذا المكان بدأ الانتقال إلى مختلف الجهات، فعمرت البقاع القريبة من الجزيرة إذا عددناها البقعة الأولى للمخلوق الأول، فتعددت بذلك الشعوب، واختلفت اللغات تبعاً للبيئات التي وجدوا فيها، وكانت من حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث في كل شعب رسولاً منهم يبلّغهم أوامر ربهم، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم ما يجب عليهم من أمور تفرضها العقيدة، وكان كل رسول يتحدث بلسان قومه حتى يمكن تبليغهم الدعوة، فآمنت جماعات وكفرت أخرى، وبذا تشكلت الأمم وافترقت.

ولما كانت المناطق المأهولة هي الجزيرة العربية وما حولها؛ لذا كانت الرسل في هذه البقاع، إذ بعثت لأقوام هذه الأراضي، ومن هنا نرى أن الرسل الذين نعرفهم لا يتعدون هذه الجهات، وخاصة هذه المناطق التي كانت أكثر سكاناً من غيرها مثل العراق وفلسطين ومصر، إضافة إلى جزيرة العرب، أما المناطق الأخرى فلم تكن آنذاك معمورة ليبعث الله فيها رسلاً، وإن وجد فيها قلة من البشر فإنما هم من الذين فرُّوا إلى تلك النواحي، وهم من أقوام الرسل الذين ذكرنا، ولذا فإن الدعوة تكون قد وصلت إليهم عن طريق رسلهم الذين بعثوا إليهم في مناطقهم الأولى التي كانوا فيها قبل أن يفرّوا، وبهذا ينطبق عليهم الحساب، ويحق عليهم العذاب ما دام الله قد

بعث إليهم رسلاً ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

هذا إضافة إلى الأنبياء الذين كانت مهمتهم هداية البشر دون أن يكلّفوا بحمل رسالة، وعدد هؤلاء كبير جداً، ولا نعرف إلاّ عدداً قليلاً منهم، وربما وجد عدد منهم في وقت واحدٍ، وفي منطقة واحدة، هؤلاء الأنبياء وأولئك الرسل باستثناء آخرهم محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام كانت مهمتهم خاصة بأقوامهم لا تتعداها، أو بجماعات منها لا تزيد عليها، لذلك كانت رسالاتهم متعلقة بتلك الأقوام، وعندما تتنزل رسالة عامة فلا بدّ من أن تنسخ كل ما قبلها، وهذا ما كان من رسالة سيد البشر إذ نسخت كل ما قبلها.

لقد سادت الجاهلية كل المدة التي كانت قبل الإسلام إلاّ في أوقات قليلة وفي مناطق محدودة، إذ أنه لم يؤمن بدعوة الأنبياء إلا أفراد قلة من جماعتهم وأقوامهم، ونتج عن هذا أمور كثيرة منها: إن الله قد أهلك هذه الأقوام التي لم تؤمن بما جاء به الأنبياء والرسل، فمنهم من أُغرق، ومنهم من خُسف بهم الأرض، ومنهم من دمرت الريح ديارهم، ومنهم من أمطرتهم السماء بمطرٍ من سجيل، وجاءت بعد هؤلاء الطاغين أقوام أخرى، فبُعثت إليهم الرسل حتى إذا فعلوا ما فعل سابقوهم، كان مصيرهم شأن أولئك الذين سبقوهم، وهكذا.

ولما كان دور الرسل في الحكم ضعيفاً، لذا لم تكن لتتنزل عليهم آيات فيما يتعلق بالحكم والتشريع والقانون تخص سوى قومهم، وهكذا فقد خلت الرسالات السابقة لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين من أي أثر عامٍ للحكم. فرسالة سيدنا موسى عليه السلام كان فيها بعض التشريعات، إذ أن سيدَنا موسى قد كان بمنزلة الحاكم لبني إسرائيل، وحكمه نافذ فيهم، قائم عليهم، إلاّ أن تلك التشريعات كانت خاصة ببني إسرائيل؛ لأنه لم تتعد سيطرته هذا القوم من البشر.

استبد الملوك والمتنفذون والطغاة بشعوبهم، وسخّروهم لأعمالهم الخاصة ومصالحهم الذاتية، فأقاموا لهم الأبنية بالإكراه، وأنشؤوا لهم المشروعات، وبقيت هذه المنشآت آثاراً عدّها المعاصرون حضارات على

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٥.

الرغم من أنها لم تكن لتحمل أي معنى إنساني، بل كان ظلم الحكام واستبداد الطغاة هو الذي يحمل الناس على العمل في هذه الأبنية، وذهبت آلاف البشر ضحية في كل مركز بناء خدمة لمستبد، أو طاعة لطاغية.

ووضع الملوك والحكام قوانين خاصة من أجل تسيير شؤون شعوبهم، وما كانت هذه القوانين لتخدم سوى مصالح المسؤولين، ولذا فهي بتغيُّرٍ دائم، تتبدل مع تبدل الحكام، وهكذا شأن القوانين الوضعية باستمرار ليس لها صفة الدوام، ولا تخدم سوى الذين وضعت في أيامهم كمسؤولين، ولذا لا نستطيع أن نعدها أبداً جوانب حضارية مهما سما الفكر فيها، حيث لا تخدم الرعايا، ولا مصالحهم؛ لأنها لم توضع أصلاً لهم، وإنما وضعت للحكام.

واستخفَّ أصحاب السلطة بأقوامهم فخضعت لهم، وعبدتهم من دون الله، وغالباً ما كان هؤلاء المتنفذون يستفيدون من أصحاب النفوذ وأصحاب المال الذين يمارسون الضغط السياسي والاقتصادي على المحكومين، ويظهرون الخضوع أمامهم للحاكم، فما يكون من المستضعفين إلاَّ أن يقلدوهم، ويصدقون ما يقوله الكبار عندما يرون أصحاب النفوذ المالي وذوي السلطة يقومون بأعمال العبادة، وإذا ما جاءهم رسول من عند الله، اشتركوا جميعاً في تكذيبه واستنكار ما جاء به ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾﴾[1].

أما الشعوب فقد كانت في حالة من التعب الشديد، إذ أنهم إضافة إلى عبادتهم للحكام كانوا يعبدون قوى الطبيعة، وفي كل مكان قوى خاصة. فالشمس، والقمر، والنجوم، والأشجار الكثيفة، والمناطق الرهيبة، والرعد، والبرق، والسحاب كل هذه قوى تُعبد، وتُقام لها المعابد، وكل منطقةٍ تختلف آلهتها بعضها عن بعض. وكذلك وُجدت الأصنام، وأغلب الظن أن هذه الأصنام كانت أسماء رجال صالحين، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى

---

(١) سورة غافر: الآيات ٢٣ ـ ٢٥.

قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أيضاً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولكنها لم تعبد حتى ضاعت معرفة الأشخاص عن هذه الأنصاب، وهؤلاء الرجال الصالحون كانوا قد عاشوا قبل سيدنا نوح، عليه السلام، حيث عاش في تلك المدة رجال صالحون بالدرجة الأولى. وقال ابن جرير الطبري في تفسيره: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا للعبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم. وأصبح لكل صنم من هذه الأنصاب عبيد مخصصون له من الناس، ولما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله عز وجل، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جداً. وهذا ما ينتشر في كثير من الأزمان، إذ أن عدداً من أتباع عالم من العلماء يتصورون أنه لا يمكنهم الخشوع في عبادتهم إلاً إذا تصوروا سيدهم أمامهم، ولربما إذا مات تصوروا ذلك، أو صوَّروا ذلك العالم، ووضعوه أمامهم، وهذه بداية عبادة الأوثان والأصنام.

وكانت الشعوب على درجة من الضعف والإهانة، فالقوي يستخدم الضعيف، والحكام يسخّرون رعاياهم جميعاً، سواءً أكان ذلك في الأعمال العامة أم في الأعمال الخاصة دون أن يستطيع إنسان أن يرفض، أو يفرّ من العمل، وإذا فكر بشيء من هذا فالموت ينتظره دون أية مسؤولية أو محاسبة من أي شخص مهما ارتفع شأنه، أو سما به الوضع، لذا فالشعوب مستضعفة مهانة لا ترتفع قيمتها في كثير من الأحيان عن مستوى الحيوانات، وإذا ما أنكر شخص تصرف مسؤول استغرب الناس هذا الإنكار، وعدوه مجنوناً أو في عقله شيء من ذلك، إذ أن الموت يقف وراء هذا الإنكار، وكذلك فالحاكم يستغرب هذا الإنكار، لأنه ما تجرأ أن يفعل أحد من قبل مثل هذا الفعل.

وعاشت الشعوب على درجة من الفقر إذ لا يستطيع رجل أن يؤمن حاجاته الأساسية، ويعدّ الحاكم أن ما يناله الفرد من رعاياه إنما هو رزق

منه يتعطف به على أفراد مجتمعه، ونتيجة الخوف من المسؤول يؤمن المجتمع بهذا إيماناً مطلقاً بالإكراه، وإن لم يكن بالقناعة، ووراثة هذه المفاهيم.

وعاشت الشعوب على درجةٍ من الجهل، ويحرص أصحاب السلطة على ترك رعاياهم بحالة من الجهل، حتى يتقبلوا كل ما يملونه عليهم من آراء وتعاليم، وما يفرضونه عليهم من عقائد ونظم وطقوس، إذ عندما يفكر المرء فإنه يرفض الخرافات، ويرفض الظلم، ويرفض الإكراه على تعاليم معينة أو أنظمة وطقوس معينة، وهذا ما يخشاه الحكام على مدى التاريخ.

لهذا كله أطلقنا على تلك الأزمنة جاهلية. إذ أن عبادة الأشخاص من الأفراد هي السائدة، والقوانين الوضعية هي التشريعات المعمول بها، وهي التي تتبدل في عهد كل حاكم بناءً على مصلحته ونظرته إلى المجتمع، ونظام السخرة هو المعترف عليه، والظلم والفوضى والبؤس هي الأمور القائمة، والإنسانية لا يوجد لها أي معنى في ذلك الزمن، وفي كل الأزمنة التي تحكم فيها الجاهلية.

ولقد تكاثر السكان في جزيرة العرب وبدؤوا ينتقلون منها إلى مختلف الجهات، وكانت حركة السير بشكل عام تأخذ أحد الاتجاهات التالية:

١ ـ **الشمال الشرقي**: باتجاه بلاد الرافدين، ومن هناك حدثت تنقلات أخرى باتجاه آسيا وأمريكا، أو تجمعات على الطريق قبل الوصول إلى بلاد الرافدين.

٢ ـ **الشمال**: باتجاه الشام، وربما توقفت جماعات عن خط السير إذا ما وجدت ما يناسبها من خصوبة الأرض أو المواقع الحصينة، ومن بلاد الشام حدثت موجات ثانية إلى جهات أخرى من مناطق البحر الأبيض المتوسط.

٣ ـ **الجنوب**: باتجاه بلاد اليمن، وكانت الزاوية الجنوبية الغربية من جزيرة العرب على اتصال بإفريقية مكان مضيق باب المندب، ومن هناك تنتقل الجماعات إلى إفريقية، أو تبحر عن طريق اليَمّ إلى جهة الهند. وقد تكون منطقة من هذه المناطق الثلاث مكان دفع آخر، وربما يعود منها إلى مقرها الأول كما حدث في جنوب العراق بعد طوفان نوح إذ توزّع أبناؤه.

في بلاد الرافدين

لما تكاثر السكان في جزيرة العرب خرجت جماعة منهم واتجهت نحو الشمال الشرقي، وانتهى بها المطاف في جنوب بلاد الرافدين، فاستقرت هناك حيث التربة الخصبة والمياه الوفيرة، فأقامت العمران، وعملت بالزراعة، ولم تلبث أن اتخذت لها أصناماً، وعبدتها من دون الله، كآلهةٍ ترجو خيرها، وتتقي شرها، فبعث الله لها نوحاً عليه السلام، ودعاها إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وألا تَعبد تمثالاً ولا صنماً ولا طاغوتاً، وأن تعترف بوحدانيته، وأنه لا إله غيره، ولا رب سواه، فلم يقدر لتلك الدعوة أن تنجح، ولم يؤمن معه إلا قليل من قومه، على الرغم من طول الزمن إذ لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان كلما انقرض جيل في حياة سيدنا نوح أوصى الجيل الذي يخلفه بألا يؤمن لنبيه، حتى إذا طالت المدة وكثر الجدال بين الطرفين ﴿قَالُوا۟ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، ولما يئس سيدنا نوح عليه السلام من إيمان قومه دعا عليهم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾[2]، فأوحى الله إليه بعد ذلك أن يصنع الفلك، لينجّي به المؤمنين، ويُغرق الباقين الذين لم يؤمنوا ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟

(١) سورة هود: الآيتان ٣٢ ـ ٣٣. (٢) سورة نوح: الآيتان ٢٦ ـ ٢٧.

مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]، حتى إذا انتهى العمل، وركب بها من قد آمن مع نوح، ساق الله السحاب فهطلت أمطار غزيرة، وانبجست ينابيع كثيرة، وطغى البحر في منطقة الخليج العربي، وارتفعت مياه البحر المتوسط حتى اتصلت المياه بعضها مع بعض، وامتلأت المنطقة بالمياه وفاضت، وتحركت السفينة باتجاه الشمال، حتى رست على جبل الجودي في شرقي تركيا اليوم، أو ما يسمى الآن جبال (أرارات) حيث كانت تلك المرتفعات تعتو على الماء، ثم انحسر البحر، وهدأت الأمطار، وغاضت المياه، وجفت العيون، وخرج ركاب السفينة منها، واستقروا هناك، وبذا انتقل مقر السكان من جنوبي بلاد الرافدين إلى المنطقة الجبلية في الشمال، وبدأت زيادة السكان مرة ثانية في تلك الجهات، وتكاثر أبناء سيدنا نوح عليه السلام الذين ركبوا معه في السفينة، فخرج سام وأبناؤه نحو الجنوب الغربي باتجاه جزيرة العرب، وتفرقوا هناك، وانطلق حام وأولاده نحو الجنوب، فقامت فئة منهم في جنوبي العراق تارة أخرى، وكانت الأرض قد جفت، وبدت خصوبة أرضها، وتابع الآخرون، فتوزعوا: فسار بعضهم نحو الجنوب الشرقي نحو الهند، واتجه الآخر نحو الجنوب الغربي حيث انتقلوا عبر مضيق باب المندب إلى إفريقية أو أن تلك القارة كانت على صلةٍ بالجزيرة، ومن هناك اتجهوا نحو الشمال وبقية المناطق فعمروها، وأما ولد نوح الثالث وهو يافث فقد تحرك وذريته نحو الشرق. ومنهم من سار نحو الغرب.

استوطنت الجماعة القادمة من الشمال مع إخوتها في أرض السواد الذي كان يعرف باسم سهل (شنعار)، وسميت هذه الجماعة بالسومريين، ولما كانت الأرض هناك ذات خصوبة ومياه وفيرة فقد اشتغلوا بالزراعة ونبغوا فيها، وبنوا السدود، وشقوا الأقنية، وكتبوا بالأحرف المسمارية. وفي الوقت نفسه رجعت مجموعة من جزيرة العرب، وأقامت بجانب السومريين، وعرفت باسم الأكاديين نسبةً إلى المدينة التي أقاموها، وكانت حاضرتهم،

---

(١) سورة هود: الآيات ٣٦ ـ ٣٩.

وقد تعلم هؤلاء الزراعة من جيرانهم السومريين. ولما كثر سكان المنطقة بدأ يرتحل عنها أقوام، فسكن بعضهم في المرتفعات الشرقية من هذه البقعة، وبنوا مدينة (سوزا) واتخذوها قاعدة لهم، وأطلق عليهم اسم العيلاميين.

كان السومريون القوة الرئيسية في المنطقة قبل أن يتغلب عليهم الأكاديون، وكانت من مدنهم الشهيرة بلدة (أور) التي تقع جنوب نهر الفرات، وكانت مياه البحر تصل إلى القرب منها، وهي غرب (هور الحمّار) اليوم.

عبدت هذه الأقوام التماثيل، وتمادت في غيّها، فبعث الله إليهم خليله إبراهيم عليه السلام، وقد نشأ في مدينة (أور) السابقة الذكر، وكان أهلها يعبدون الكواكب كما يعبدون التماثيل، فناقشهم في هذه العبادات، وجادلهم، كما ناقش ملكهم، وتغلب عليهم جميعاً، ولكن النقاش والجدال لا يجديان مع الكفار، إذ يرون الحقيقة مرّة، والهزيمة في المناقشة أمر صعب، لذا فهم يصرون على كفرهم وعنادهم، ويحاولون أن يسخروا ممن هزمهم، ويدّعون أن كلامه بسيط، وفيه سخف وخرافة، وهذا ما يستوجب أن يكون مجنوناً فلا يؤبه لكلامه، وقد بدأ دعوته لقومه بمختلف الأساليب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟

حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[1]. كـمـا جادلهم في عبادة الكواكب قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[2]، ولـقـد ناقش سيدنا إبراهيم الملك (النمرود) الذي كان يتغطرس على قومه ويستعبدهم، ويدّعي أمامهم الألوهية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[3]. وبعد هذه المناقشات والجدال والدعوة لم يؤمن من هذه الأقوام سوى لوط ابن أخي إبراهيم، وزوجه سارة ابنة عمه، عندها التفت مرة أخرى إلى أبيه يؤكد على دعوته له، ويتلطف به، قال تـعـالـى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٧٠.
(٢) سورة الأنعام: الآيات ٧٤ ـ ٧٩.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾»[١]. ولما هجر قومه في الله، هاجر من بين أظهرهم ومعه أخوه هاران وزوجه (ملكا)، ولم يكونا مؤمنين، وابن أخيه لوط، وقد آمن وأسلم، وزوجه سارة ابنة عمه، كما سافر معه أبوه آزر حناناً عليه وتعطفاً، وكانت جهة السفر لبلاد الشام، وكان الطريق على مجرى نهر الفرات، حتى وصلوا إلى بلدة (حرّان) التي تقع في تركيا اليوم شمال سورية على مجرى نهر (البليخ)، وقد نسبت إلى أخيه (هاران)، وهناك مات أبوه آزر (تارخ)، فوجد هناك قوماً يعبدون الكواكب فناقشهم في عبادتهم لها، فلم ينفعهم ذلك، بل أصروا واستكبروا، واستمروا في عتوهم. لذلك غادرهم. ويبدو أنهم جماعة من أحفاد وذرية (يافث بن نوح) استقروا في تلك الناحية. واتجه نحو بيت المقدس، وكان طريقه على بحيرة قطينة، ودمشق، وقد مرَّ على بلدة (برزة) وصلَّى هناك، ولا يزال هناك مقام له مكان مصلاه، ومنهم من يزعم أنه ولد هناك. وكانت بلاد الشام قد انتشرت فيها بعض الأقوام، منها القادمة من الجزيرة العربية، ومنها الجماعات التي جاءت منفردة من العراق، وكانت قليلة فلم تعرف، حتى إذا كثرت وزاد عددها اشتهر أمرها، ومنها من قدم من الشمال من أحفاد وذرية (يافث)، وكان أكثر هذه الجماعات يعبد الكواكب، وكانوا يتجهون في عبادتهم إلى القطب الشمالي على جهة نجم القطب، وكان على أبواب دمشق القديمة هيكل لكل كوكب، على كل باب من أبوابها. وكانت نهاية مطاف رحلته إلى شرق بيت المقدس، ثم تابع إلى البلدة التي عرفت باسم (الخليل) فأقام هناك، وجاءت سنوات عجاف فارتحل إلى مصر، وأقام ابن أخيه لوط في جنوبي البحر الميت الذي يسمى بحيرة لوط، ونترك الحديث مع سيدنا إبراهيم إلى موضوع بلاد الشام.

أما الأقوام التي كانت تقيم في جنوبي بلاد الرافدين والتي بُعث إليها سيدنا إبراهيم فقد تمادت في غيِّها، وعتت عن أمر ربها، وظلمت نفسها،

---

(١) سورة مريم: الآيات ٤١ ـ ٤٨.

فسلط الله عليها جماعات ظالمة مثلها ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1]، فأتت مجموعات من الجنوب الغربي فرَّت من ظلم لحقها من ظالمين آخرين اشتركوا جميعاً في عتوهم عن طاعة الله وتكذيبهم أنبياءهم، أو كثر عددهم فضاقت عليهم الأرض بمرعاها، فخرجوا يبتغون أرضاً أخرى، أو أجدبت عليهم بعد إخصاب فانطلقوا يفتشون عن دار يحلّون فيها، يجدون فيها الخصب، يحصلون على الكلأ، فوصلوا إلى ديار قوم إبراهيم الخليل الأوائل (السومريون)، فقاتلوهم، وانتصروا عليهم وأقاموا مكانهم، وكانت عاصمتهم مدينة (بابل) لذا عرفت الدولة التي أسسوها باسم الدولة (البابلية) نسبة إلى حاضرتهم. وقد اشتهرت هذه الدولة بالاهتمام بالزراعة، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي وضع قوانينه التي عرفت باسم (شريعة حمورابي) وكانت الغاية منها فرض هيمنته على الدولة، وازدهارها، إلا أن هذه السلطة لا يمكن أن تدوم، وهذه القوانين لا يعمل بها إلا في العهد الذي وضعت فيه ولخدمته، فلم يلبث خلفاء حمورابي أن أصدروا تشريعات جديدة، ولما كانوا قد استمروا في عبادة التماثيل التي ورثوها من الأماكن التي انطلقوا منها، ومن الأرض التي أقاموا فيها، والتي أخذوها من السابقين لهم ـ أقوام سيدنا إبراهيم ـ ولم ينتبهوا إلى ما أصابهم من قبل، ولا إلى ما أصاب سابقيهم ولم يعودوا إلى أنفسهم، ويقبلوا دعوة الله من أنبيائهم الذين بعثهم الله إليهم، لذا فقد سلّط الله عليهم أقواماً آخرين، جاء أكثرهم من الشمال، بعضهم من الذين انتقلوا إلى تلك الجهات، وبعضهم من أحفاد يافث بن نوح، وقد عرفوا بأسماء مختلفة حسب الأماكن التي تكاثروا فيها، أو الأصول التي انتموا إليها، أو الأسر التي انتسبوا إليها، ومنهم الحثيون، والميتانيون، والآشوريون. وآل الأمر إلى الآشوريين الذين كانوا في شمالي العراق، وقد اتخذوا من مدينة (نينوى) عاصمة لهم، وهي تقع بالقرب من مدينة الموصل اليوم. وقد ضمت (نينوى) مكتبة عامرة، واستطاع الآشوريون أن يبسطوا

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٢٩.

نفوذهم على جنوبي العراق وبلاد الشام، وأن يهاجموا المصريين، واشتهر من ملوكهم (سلمنصر الثالث) و (آشور بانيبال). وقد تابع هؤلاء الآشوريون عبادتهم للتماثيل والكواكب، وهو ما أخذوه من سابقيهم، واستمروا عليه، فلم يفكروا، ولم يعملوا عقولهم، ولم يتعظوا بما حلَّ بسابقيهم، ولم يقبلوا من أنبيائهم، وفي النهاية بعث الله إليهم يونس بن متى رسولاً، فدعاهم فلم يؤمنوا، فضاق بهم ذرعاً، فخرج مغاضباً، فركب سفينة في نهر دجلة، وكان يومذاك أكثر اتساعاً، وأوفر غزارة، وأكبر عمقاً، فاضطربت السفينة وماجت بهم، وقد ثقلت بما فيها، ورأوا أنهم غارقون لا محالة إذا استمر الحمل الذي عليها، لذا قرروا أن يقترعوا على من يلقوه في البحر تخفيفاً عنها وخوفاً على أنفسهم فإن ذلك خير من أن يموتوا جميعاً، فاقترعوا فكانت القرعة على نبي الله يونس، فأعادوا الاقتراع مرات ثلاث، وكانت القرعة نصيب يونس عليه السلام في كل مرة، فلما ألقي التقمه الحوت، ويبدو أن بطن الحوت كان مثقوباً، ثم لم يلبث أن خرج الحوت من النهر، ولفظ يونس إذ تضايق منه، ولم يستطع هضمه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[2]. ورجع يونس عليه السلام إلى قومه فأعاد عليهم النصح والإرشاد والدعوة إلى الله، وكانوا قد ندموا على رفضهم دعوته، وأبدوا أسفهم وبخاصةً أنه وعدهم بحلول العذاب عليهم ونزوله بهم لتعنتهم وظلمهم، فأظهروا الإيمان ونتيجة هذا الندم فقد كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا إلى حين، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨. (٢) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾[1]، إلا أن هذه الندامة لم يرافقها العمل الصالح والتقيد بما يأمرهم به رسولهم؛ لذا كان تأجيل العذاب عنهم في الحياة الدنيا مدة ندامتهم، أما في الآخرة فلهم العذاب الذي يستحقونه بما كسبت أيديهم، ولما مرّ الزمن عليهم نسوا ما ندموا عليه، فلما عادوا إلى الظلم والطغيان واقتراف الجرائم وعبادة الأصنام، أرسل الله إليهم جماعات منهم كانوا يحكمونهم، ويخضعون لهم، ويدينون لهم بالولاء، فنهضوا في وجههم، وقاتلوهم، وفي النهاية سقطت نينوى بيد المحاربين الجدد عام ١٢٣٤ قبل الهجرة، وأصبح حكام المنطقة يعرفون باسم الكلدانيين، واتخذوا من بابل أيضاً عاصمة لهم، لذا عرفت دولتهم باسم (الدولة البابلية الثانية)، وكان من أعظم ملوكها بختنصر الذي استولى على بلاد الشام، وفتح القدس، واستباحها لجنده، ثم أخذ اليهود أسرى إلى عاصمته، وقد عرف هذا الحادث باسم (الأسر البابلي)، وقد بقي اليهود في بابل مدة سبعين عاماً، كما هاجم مصر عام ١٢٢٧ قبل الهجرة، وبنى بختنصر برج بابل المشهور، واستمرت هذه الدولة حتى غزاها الفرس عام ١١٦١ قبل الهجرة، وقضوا عليها.

بعد أن تكاثر السكان في بلاد الرافدين، بدأ عدد منهم يتحرك نحو الشرق، ويستقر في مناطق خاصة به، إضافة إلى أن الحروب المتكررة، والثورات الدائمة جعلت عدداً من السكان يغادرون ديارهم، ويفتشون عن بقاع ثانية بعيدة عن مناطق الحروب والغزوات علّهم يجدون فيها الراحة والهدوء، الأمر الذي جعل بلاد فارس تعمر بالبشر، وعندما كثر عددهم، تجمّعوا في دولة، وغزوا الكلدانيين، واحتلوا بلادهم عام ١١٦١ قبل الهجرة، كما هاجموا مصر، وسيطروا عليها، وبقوا فيها حتى جاء الإسكندر الكبير المقدوني، واحتلها.

ومن بلاد فارس انتقلت جماعات أيضاً نحو الشرق، فراراً بأنفسهم، واستقروا في أواسط آسيا وصحاريها. ومع الزمن نشأ هناك العنصر المغولي الذي أثرت على جسمه تلك الصحاري الباردة، فأخذ سمته الخاصة بها،

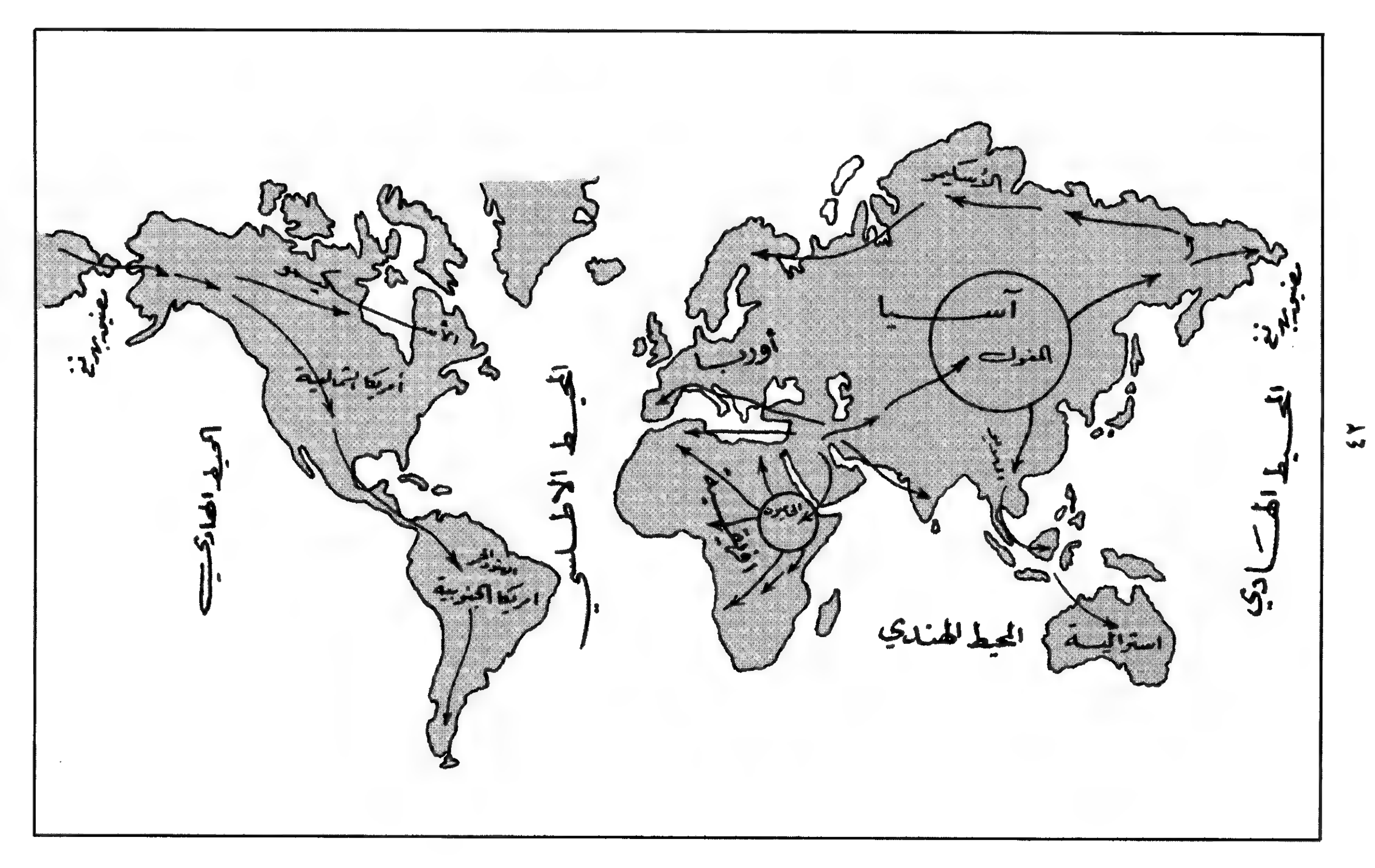
---

(١) سورة يونس: الآية ٩٨.

وقد عاشوا هناك آمنين مطمئنين، وأمدهم الله بأموال وبنين، فتكاثروا بسرعة، وتدفقت عليهم الخيرات، فأعجبهم عددهم، وأبطرتهم النعمة، فكان غناهم ضرراً عليهم، إذ ظنوا أن لهم القوة ولهم العزة والمنعة، وأنه لا غالب لهم فكفروا بأنعم الله، فأذاقهم لباس الخوف والجوع بما كانوا يصنعون، إذ أرسل إليهم جماعات أولي بأس شديد وقوة، فجاؤوهم من جهة الغرب، فجاسوا خلال الديار، وقاتلوا أهلها، ففروا تاركين منازلهم، لا يلوون على شيء من شدة الصدمة وهول الضربة، منهم من اتجه إلى الجنوب، ووصل إلى شبه جزيرة الملايو، ومنهم من سار نحو الشمال، وتفرّق في الصحارى الباردة في شمالي آسيا، وقد توقفت عندها أقدام خصومه لمتاهات الصحراء واتساعها وشدة بردها، ومن هذه القبائل التي لا تزال هناك قائمة إلى اليوم، ومنهم من بقي في مكانه، وهم الضعفاء الذين لا يستطيعون الفرار والانتقال.

ولكن لم تكن هذه النازلة لتعيد إلى تلك الشعوب العصاة صوابها، وترجعها إلى عقلها، بل تمادت في غيّها، وزادت كفراً وعتواً، كما بغى الذين حلّوا محلّهم، فضرب الله بعضهم ببعض، وسلّط جماعات منهم على الآخرين، فأعيدت عليهم الكرة، وحدثت الهجرات مرة أخرى تحت ضغوط أخرى، فتفرق الملاويون في الجزر، ووصلوا إلى استراليا وتاسمانيا، وجزر المحيط الهادي، وانتقل آخرون عن طريق مضيق (بهرنغ). وسواء أكان موجوداً أم كان البر متصلاً، فدخلوا أميركا، وتوزعوا فيها، فمنهم من تابع سيره نحو الجنوب حتى أضناه التعب، وأنهكه الانتقال، فاستقر في أقصى جنوبي أمريكا، أو أنه وصل إلى نهاية المطاف، ومنهم من أقام في الغابات الاستوائية، واتخذ منها ملجأ، ومن مجاهلها ملاذاً له، ومنهم من عاش في البراري في المناطق المعتدلة في أمريكا الشمالية، وبقيت جماعات منهم في المناطق الباردة في أقصى شمال أمريكا.

إن هذه الشعوب جميعها من ملاوية وآسيوية، ومن يسكن منها في أمريكا لتعود إلى أصل واحد، وتمت إلى عرق واحد ألا وهو العرق الأصفر الذي يعرف بالجنس المغولي، والذي أخذ صفاته الأصلية من وسط آسيا في صحراء منغولية، هذا الأصل الواحد والصفات المشتركة بين هذه الشعوب هي التي تحدد هذه الهجرات، وترسم طريق سيرها وخط انتقالها.


مضيق بيرنغ
المحيط الهادي
أمريكا الشمالية
أمريكا الجنوبية
المحيط الاطلسي
أوروبا
آسيا
المغول
المحيط الهندي
استرالية
مضيق بيرنغ
المحيط الهادي

في بــلاد الشّـــام

كان البشر قد وصل إلى بلاد الشام وتوزّع فيها على شكل تجمعات قليلة أكبرها ما كان في المناطق الخصبة التي تشبه بلاد الرافدين مثل غوطة دمشق، والغوطات الصغيرة الأخرى، ومناطق الساحل، وعلى ضفاف الأنهار، وأقيمت قرى صغيرة هنا وهناك، لذا لم تقم حكومات يمتد نفوذها على مناطق واسعة، وإنما حكومات تشمل هذه القرى أو المدن الصغيرة، وهذا ناشئ أيضاً عن الوحدات التضارسية المتباينة على عكس ما هي الحال في بلاد الرافدين.

ولما وصل الخليل إبراهيم إلى البلاد الشامية، وأقام في منطقة الخليل بعد رحلته من بلاد بابل، أصاب المنطقة سنوات قحط وجوع، فهاجر إلى مصر، ومعه امرأته سارة، فلما رآها ملك تلك الديار، وكان جباراً من الجبابرة أرادها لنفسه، وأمر أن تحضر إليه، ولم تستطع هي ولا زوجها إبراهيم إلا تنفيذ أوامر حاكم البلاد، لذا طلب منها زوجها أن تقول عنه: إنه أخي ويقصد أخوها في الله، وذلك خوفاً من أن يقتله الحاكم ليصطفيها لنفسه، وعندما دخلت على الملك وسألها عن الذي معها. قالت: إنه أخي، وامتنعت عنه بإرادة الله ومشيئته، وعندما علم الملك حقيقة أمرها تركها، وقدَّم لها أمة تدعى هاجر لتخدمها، ولكنه أمرها ورجلها بالخروج من البلاد.

عاد إبراهيم عليه السلام إلى منطقته الأولى (الخليل) ومعه امرأته (سارة)، وأمتها (هاجر)، واستقروا هناك، وكان ابن أخيه لوط عليه السلام في منطقة الغور في مدينة (سدوم) جنوب البحر الميت، إلا أن جماعة من

الجبارين قد هاجموا سيدنا لوط وأسروه، وأخذوا أنعامه وأمواله، وساروا به نحو دمشق، فطاردهم الخليل وعسكر شمال دمشق في (برزة)، ثم عاد منتصراً، ومعه ابن أخيه عليهما السلام، وأقام كل في مستقره الأول.

عاش الخليل إبراهيم مع امرأته سارة عشرين عاماً، وهي عقيم لا تنجب ولداً، فقالت لزوجها: أرى أن تتزوج (هاجر) عسى الله أن يرزقنا منها غلاماً، ففعل، وحملت هاجر، ووضعت ولدها إسماعيل، إلا أن سارة لم تلبث أن دبت الغيرة فيها، ولم تعد تستطيع رؤية هاجر ولا ابنها إسماعيل، كما أن أم إسماعيل قد تعاظمت على سيدتها الأولى، لذا فقد طلبت سارة من زوجها أن يغيِّب عنها هاجر وابنها إسماعيل، وما كان عليه إلا أن يمتثل لأمر الله، فسار بهما نحو الجنوب حتى وصل إلى موضع مكة المكرمة، فتركهما هناك وعاد، وكان إسماعيل رضيعاً. فسألت (هاجر) إبراهيم قبل أن يغادرهما: الله أمرك بذلك؟ قال: نعم. قالت: إذن لن يضيِّعنا. وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه مكان البيت ثم دعا فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[1].

أكلت هاجر ما تركه إبراهيم لها من طعام، وشربت ما أبقاه لها من ماء، ولما نفد أصابها وابنها الظمأ، وبدأت تسعى بين الصفا والمروة تفتش عن الماء، حتى دُلَّت على مكان بئر زمزم، فانبجس منه الماء، وبدأت تشرب ورضيعها منه، ثم سمحت لقبيلة جرهم أن تقيم معها، لتجد فيها الأنس والطمأنينة، ونشأ إسماعيل بينهم، وتعلم منهم العربية لغتهم.

عاد الخليل إبراهيم من رحلته إلى الحجاز وقد ترك زوجه (هاجر) وابنه إسماعيل، وأقام ثانية في منطقة الخليل مع امرأته سارة، وكان ابن أخيه لوط، عليه السلام، لا يزال في منطقة الغور في مدينة (سدوم)، وقد

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

بُعث إلى قوم كانوا يأتون الفواحش، ويعدون آنذاك من أفجر الناس، وأكفرهم، وأسوأهم طوية، وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكور من دون النساء، فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن ترك الفواحش والمحرمات وما يتعاطونه من منكرات، فتمادوا في ضلالهم، واستمروا في طغيانهم وفجورهم، فأحل الله بهم العذاب الذي جاءهم من حيث لم يحتسبوا، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[1]، ولا تزال بلدة (سدوم) تحت مياه البحر الميت وعلى عمق ما يقرب من عشرة أمتار.

وبُشِّر الخليل إبراهيم بولد من زوجه سارة، وذلك بعد مولد سيدنا إسماعيل بحوالي ثلاث عشرة سنة، وكانت البشرى عن طريق الملائكة وهم في طريقهم إلى قوم لوط ليهلكوهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ٨٠ ـ ٨٤.

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾[1].

نشأ إسحاق، عليه السلام، في منطقة الخليل وتزوج، وجاءه غلام سمي يعقوب، عليه السلام، وهو إسرائيل، وبعث إسحاق ليتابع دعوة أبيه إبراهيم الخليل. واضطر ابنه يعقوب أن يرحل إلى أرض حرَّان في شمال بلاد الشام، وأن يقيم فيها مدة من الزمن، وأن يتزوج من هناك من ابنة خاله، ثم يعود مع أهله، وكان قد ولد له عشرة من الأولاد الذكور من عدة نساء أثناء إقامته بحران. كما ولد له اثنان آخران في الأرض المقدسة، أحدهما هو بنيامين شقيق سيدنا يوسف، عليه السلام، وقد توفيت أمه (راحيل) أثناء الوضع، ودفنت في بيت لحم.

وبعث سيدنا يعقوب ليتابع دعوة أبيه إسحاق وجده إبراهيم الخليل، في الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان يحب أبناءه الصغار يوسف وبنيامين أكثر من غيرهما عطفاً عليهما لوفاة أمهما (راحيل)، وذكرى لها، وحدثت له قصة ابنه يوسف، عليه السلام، المشهورة، وملخصها: أن إخوته قد شعروا بالغيرة والمضايقة من حب أبيهم لأخيهم يوسف أكثر من حبه لهم، لذا أجمعوا أن يتخلصوا من يوسف، وقرروا أن يلقوه في

---

(١) سورة هود: الآيات ٦٩ ـ ٨٣.

الجب، وكان أبوهم لا يرغب في ذهاب يوسف مع إخوته خوفاً عليه وحباً له، ولكن الأولاد أقنعوا والدهم بحبهم لأخيهم، وطلبوا من أبيهم السماح له بالذهاب معهم حتى ينال حظه في اللعب والتسلية معهم، فوافق، وذهبوا بأخيهم صباح يوم، وعندما رجعوا مساءً عادوا دونه وهم يبكون، وقد ألقوا أخاهم في الجب، وادعوا أمام أبيهم أن الذئب قد أكله.

وجاءت قافلة تتجه من بلاد الشام إلى بلاد مصر، ومرّ ساقيها على الجب ليحمل الماء إليها، فوجد يوسف فأخذه، وعُدّ عبداً بيع في مصر لمصلحة رجال القافلة جميعاً، واشتراه عزيز مصر، ولم يكن له من ولد، وطلب من امرأته أن تعتني به عسى أن ينتفعوا به أو يتخذوه ابناً لهما، وشب يوسف، وكان جميلاً، فراودته امرأة العزيز عن نفسه فأبى، وادعت عندما رآهما زوجها، أنه هو قد حاول الاعتداء عليها، ومع قناعتهم جميعاً بصدقه وزعمها الباطل فقد أدخلوه السجن، وبقي فيه بضع سنين، ثم خرج عندما علم الجميع ببراءته وقدرته على إدارة الأعمال والتخطيط للمستقبل، وأصبح مديراً للإدارة المالية ومخططاً لأعمال التصدير، فكان يوزع القمح على من يأتي من البلاد المجاورة إذ كانت فيها سنوات عجاف، على حين كانت مصر تعيش برخاء وخير كبيرين.

وجاءت القوافل من بلاد الشام تبتاع الحبوب، وتقايض على بعض المنتجات، وكان من جملة من جاء مع القوافل إخوة يوسف، وقد عرفهم لأنه لم يتغير كثير من أجسامهم إذ كانوا كباراً أو على الأقل بعضهم عندما فارقهم، وبمعرفة بعضهم عرف الآخرين، أما هو فقد كان صغيراً عندما انقطع عنهم، وألقي في الجب وانتقل إلى مصر، فتغير جسمه كثيراً لذا لم يعرفوه. وبعد أن أعطاهم حاجتهم من الحنطة، وهي حمل بعير لكل فرد منهم، طلب منهم أن يأتوا في المرة القادمة مع أخ لهم من أبيهم حتى يعطوا حمل بعير إضافي، وإن لم يفعلوا فإنهم لن يحصلوا على أية كمية مهما صغرت، أو أنه لن يكيل لهم أبداً. ورجع الركب إلى أبيهم، وقصّوا عليه ما حدث، وطلبوا منه أن يسمح لهم بأن يأخذوا معهم أخاهم

(بنيامين)، وأقنعوه بذلك بعد محاولته الرفض والامتناع، إذ ذكَّرهم بما فعلوه بشقيقه يوسف، وبعد أن وافق على رحلة ابنه مع بقية إخوته، زوَّدهم ببعض النصائح، وودَّعهم، وانطلقوا في القافلة.

ووصل إخوة يوسف إليه فأعطاهم مطلبهم، وعندما انطلقوا وقطعوا مسافة قصيرة طُلب منهم الوقوف إذ أن صواع الملك مفقود، ففتش عليه في أحمالهم فوجده في رحل بنيامين، فأعيد صاحب الرحل إليه، وكان يوسف قد عرَّف بنيامين على نفسه، ورغب في إبقائه إلى جانبه، ولذا وضع صواع الملك في رحله حتى يحصل على ما تمَّ. وشعر أبناء يعقوب أنهم قد نكلوا بما وعدوا به أباهم، وحاول كبيرهم ألا يعود حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ورجع بقية الإخوة إلى أبيهم، وحدّثوا أباهم يعقوب بما حدث معهم، فتأثر تأثراً عظيماً، وفقد بصره من شدة الحزن، وطلب منهم أن يعودوا مرة أخرى يفتشون عن يوسف وأخيه.

وذهب أبناء يعقوب إلى مصر، وتعرَّفوا على يوسف، وعفا عنهم وعما فعلوه، وشعروا هم أن الله قد فضَّله عليهم، وطلب منهم أن يعودوا إلى بلادهم ويأتوا بأهلهم جميعاً، ففعلوا. وهكذا انتقل بنو إسرائيل إلى مصر، وبقوا فيها مدة، ومات يعقوب، عليه السلام، فنقل إلى الخليل، ودفن هناك، ثم توفي يوسف، عليه السلام، فحنِّط وبقي في التابوت حتى نقله معه نبي الله موسى، عليه السلام، عندما خرج ببني إسرائيل من مصر.

وضعف أمر بني إسرائيل بعد يوسف، عليه السلام، وكانوا قد تكاثروا فيها، وقد دخلوها ولا يزيد عددهم على المائة، وبدأ الفراعنة يضطهدونهم، وخاصة أن الإسرائيليين كانوا يشيعون أن أحد أبنائنا سيخلّص مصر من ملكها، وسيقتله وذلك جزاءً لما فعله سلفه من الفراعنة الذي حاول أن يعتدي على أمنا سارة زوج أبينا إبراهيم، لهذا أمر فرعون أن يقتل كل مولود لبني إسرائيل وأن تترك الإناث، ولكن أمر الله لا يرد، وولد موسى، عليه السلام، وألقته أمه في النيل ضمن صندوق، فأخذه فرعون، ورباه عنده، ولم يكن ينجب أولاداً، فعندما كبر موسى، عليه السلام، دعا

فرعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وجادله وناقشه، فلم يؤمن فرعون. وبدأ الانقسام واضحاً بين بني إسرائيل والقبط، واختلف رجلان من الفريقين، فاستنجد الرجل الإسرائيلي بموسى على القبطي، فوكزه موسى فقضى عليه، وكادت الحادثة تتكرر، وشاع بين الناس جميعاً أن موسى قوي، ورأى القبط أن يقتلوه، فخاف على نفسه، وفرَّ إلى بلاد مدين، وبقي فيها مدة تقرب من عشر سنوات تزوج خلالها ثم عاد بأهله إلى مصر، وأثناء الطريق كلمه الله في سيناء، وبعثه رسولاً إلى فرعون وملئه، كما بعث الله أخاه هارون ليكون دعماً لأخيه.

دخل موسى، عليه السلام، مصر، وذهب وأخوه هارون إلى فرعون فدعواه إلى عبادة الله الواحد القهار، فأبى واستكبر، وجمع لهما السحرة فكان أن آمنوا، وأبعد قومه عن موسى، عليه السلام، فكان أن آمن بعضهم، وكتموا إيمانهم، وما زاد ذلك فرعون إلاً كفراً وعتواً في الأرض، وعلم أن القتال سيدور في المستقبل بين الفريقين: بنو إسرائيل والقبط. لذا أمر فرعون أن يعاد تقتيل أبناء بني إسرائيل واستبقاء نسائهم حتى يكونوا قلة في المستقبل، ولا يستطيعون قتال القبط فيما إذا فكروا بذلك، وإذا وقع فإن عدوهم سيكون قليلاً، وستكون الهزيمة دائرة عليهم. وأصاب عذاب الخزي في الحياة الدنيا فرعون وقومه، وعندها حلفوا لموسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ما هم فيه ليؤمنن بالله وبما يدعو له موسى، وليرسلن معه بني إسرائيل، فرفع الله عنهم، فعادوا إلى ما كانوا عليه من العتو والاستكبار، وأعرضوا عما جاءهم من الحق، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم آية أخرى فعادوا إلى إيمانهم ووعدهم وعهدهم، حتى إذا كشفت عنهم أصرُّوا على بغيهم وتكررت معهم الحادثة مرات ومرات، ثم إن موسى قد دعا على فرعون وملئه، واستأذنه بالخروج مع بني إسرائيل إلى عيدٍ لهم، وما كان ذلك إلا حيلة، فخرجوا واستعاروا حلياً من القبط، وساروا متجهين إلى بلاد الشام، وبلغ ذلك فرعون فلحقهم هو وجنوده، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، وأيقنوا أنه لا بدّ من

القتال، وخاف أصحاب موسى، عليه السلام، لقلتهم، واعتقدوا أنهم مدركون، وتوقف بنو إسرائيل أمام البحر حتى اقترب منهم فرعون وجنوده، وعندها أوحى الله لنبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، فانطلق بنو إسرائيل بين الفرقتين، وتبعهم فرعون وجنوده، فلما خرج بنو إسرائيل من مكان الماء كان فرعون وجنوده جميعاً في ذلك المكان ـ مكان الماء المفترق ـ فعاد الماء إلى ما كان عليه، فغرق فرعون ومن معه ولم ينج منهم أحد، وكان الجميع قد غرقوا باستثناء جثة فرعون فقد طفت على الماء، فأخذت وحنطت لتكون عبرة لكل طاغية، وكان ذلك البحر امتداداً لخليج السويس، أما بنو إسرائيل فقد خرجوا، وأصبحوا في الضفة الثانية للبحر، أي: في شبه جزيرة سيناء، أو في بلاد الشام.

دخل بنو إسرائيل مصر مع أبيهم إسرائيل (يعقوب) وعددهم لا يزيد على المائة، وخرجوا مع موسى، عليه السلام، ويزيد عددهم على الألف وستمائة رجل عدا الذراري، وبقوا هناك ما يقرب من خمسمائة عام.

ولما خرج بنو إسرائيل من البحر، وغرق فرعون وجنوده، شعروا أنهم أصبحوا في أمن، وأنهم أصبحوا أحراراً فتكبَّروا وعتوا، وبدؤوا يطالبون رسولهم موسى، عليه السلام، بمطالب تدل على أنهم قد نسوا ما كانوا عليه، ونسوا الإيمان الذي بفضله أُنقذوا من فرعون، وبسببه تغلبوا على أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾[١].

وكانت بلاد الشام قد أصبحت مسرحاً لانتقال أعداد من القبائل وصلت إليها، بعضها جاءت عن طريق العراق، وبعضها الآخر جاء مباشرة من جزيرة العرب، وتوزعت هذه المجموعات في المناطق الخصبة، فمن أقام في المناطق الشمالية عرف باسم العموريين، ومن استقر في الساحل

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٨ ـ ١٣٩.

سمي باسم الفينيقيين، ومن عاش في الجهات الجنوبية أطلق عليه اسم الكنعانيين. وقد أقام هؤلاء السكان الجدد بجانب مجموعات سبقتهم إليها سواء أكانوا من الفلسطينيين الذين سكنوا سواحل جنوبي بلاد الشام والسهول الساحلية أم بقايا الجبابرة والعمالقة الذين كانوا متفرقين في البلاد وقلة. ولقد أشركت هذه الجماعات فعبدت غير الله، وجعلت لنفسها أصناماً خضعت لها ودانت، فأرسل الله إليها الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، ولكنهم رفضوا الدعوة وتنكروا لها، وركبوا طريق الضلالة. وقد أرسل الله أيوب، عليه السلام، للجماعات التي كانت تقيم في منطقة حوران فعاش بينهم سبعين عاماً يدعوهم، فما آمن له من قومه إلا قليل، ثم ابتلاه الله ثمانية عشر عاماً آخر، وأناب أمره إلى الله، وعافاه الله فعاش سبعين سنة أخرى، يتنقل في شمال سورية على دين الحنيفية دين أبيه إبراهيم، عليه السلام، إلا أن الناس قد غيَّروا بعده ما دعاهم إليه. كما بعث الله في تلك المنطقة (اليسع)، عليه السلام، وبعث لأهل إنطاكية (يس) قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[1]، ومن هذا يبدو أن أنبياء الله كانوا كثيرين لهذه الأقوام، ولكن لا نعرف إلا بعض رسلهم وهم الذين ذكرهم القرآن الكريم، وكذلك فإن عدد المؤمنين الذين صدقوا الرسل، وآمنوا بما جاءوا به إنما كان عددهم قليلاً أيضاً. كما أرسل الله نبيّه (إلياس) إلى أهل بعلبك الذين كانوا يعبدون صنماً كبيراً يدعى (بعل)، وإضافة إلى المدينة فهو رسول إلى تلك الجماعات التي كانت تعيش في منطقة البقاع الشمالية،

---

(١) سورة يس: الآيات ١٣ ـ ٢٠.

فدعاهم إلى ترك عبادة بعل، والاتجاه نحو عبادة الله تعالى الذي خلقهم، فكذّبوه. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾[1].

كان على الكليم موسى أن يقاتل مع بني إسرائيل تلك الأقوام الموجودة في بلاد الشام، فقد وجب عليه القتال ما دام قد أصبح سيد قومه الوحيد، وصاحب الكلمة المسموعة، وعليه أن ينفذ فيهم حكم الله، وأن يقاتل من يقف في وجه الدعوة والمشركين عامة، فقال لقومه ذلك، فخافوا وجبنوا، وضعفوا عن القتال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[2] وذهب الكليم موسى، عليه السلام، لميقات ربه فعبد قومه العجل من بعده قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٢٣ ـ ١٣٢. (٢) سورة المائدة: الآيات ٢٠ ـ ٢٦.

أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾[1]، وكان الرسول موسى، عليه السلام، يذكّرهم بنعم الله عليهم، ويطلبون منه المعجزات والمطالب، ويغفر الله لهم، ويمدهم بمزيد من النعم، ومع ذلك فهم يتنكرون ويرفضون الإخلاص لله سبحانه وتعالى، وقد تأثر موسى، عليه السلام، منهم أشد التأثر وكذلك أخوه هارون.

توفي الرسول هارون، عليه السلام، وبنو إسرائيل في التيه، ثم لم يلبث أن توفي أخوه موسى، عليه السلام، وقومه لا يزالون في تيههم، وبعد ذلك خرج من بقي من بني إسرائيل من سيناء مع يوشع بن نون.

خرج يوشع بن نون من التيه وسار بهم نحو بيت المقدس، وكان جيشه مقسَّماً إلى اثني عشر قسماً حسب الأسباط أبناء النبي يعقوب، عليه السلام. وكان طريقه من ناحية الأردن، وعبر النهر، وحاصر مدينة (أريحا) مدة ستة أشهر، ثم استطاع فتحها، وتوجَّه إثر ذلك إلى بيت المقدس فدخلها، وطلب من جنده أن يسجدوا لله الذي هيّأ لهم هذا الفتح العظيم، ولبث فيهم أكثر من ربع قرن ثم توفي، وبدَّل بنو إسرائيل ما قيل لهم وما أنزل الله عليهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٤٨ ـ ١٥٣. (٢) سورة البقرة: الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.

أثناء هذا الزمن جاءت جماعات أخرى من الجزيرة العربية تعرف باسم (الآراميين)، وتنقلت في منطقة الهلال الخصيب، ثم استقرت في سورية، وأسست عدة ممالك نتيجة استقرار كل مجموعة في مكان، وأشهر هذه الممالك: دمشق، وحماة، وسامال التي تقع شمالي البلاد، وتعدّ اللغة السريانية التي تعرف في بعض قرى القلمون من بقايا اللغة الآرامية. ولم تكن دياناتهم لتختلف كثيراً عن ديانات السابقين لهم، إذ كان لكل مدينة إله خاص، وتقدم له القرابين والضحايا والهدايا وسط ساحة مكشوفة، في وسطها تمثال وأمامه مذبح تقدم عليه الضحايا، ومن أشهر آلهتهم التي عبدوها (عشتار) والإلهة (أدونيس).

وتولى أمر بني إسرائيل بعد يوشع بن نون (حزقيل بن بوذي)، إلا أن عهده لم يطل فيهم، وتفرقت بعده بنو إسرائيل، وضعف أمرهم إذ كانوا يقتلون أنبياء الله. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[1]. فسلط الله عليهم أعداءً من الداخل إذ استبدل بالأنبياء الذين كان يبعثهم لهم ملوكاً جبَّارين طغاة يسفكون دماءهم ظلماً، ويعذبونهم قهراً، كما سلط عليهم أعداءً من الخارج إذ تغلب عليهم أهل (غزة) و (عسقلان)، وسلبوا منهم التابوت، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبَوا من أبنائهم عدداً كبيراً، وانقطعت بينهم النبوة، وانقسمت دولتهم، واستمر ذلك ما يقرب من أربعمائة عام، إذ بعث الله فيهم بعد ذلك (شمويل) نبياً، فطالبوه بالقتال وأن يعين عليهم ملكاً ليقاتلوا تحت إمرته، فلما عيَّن عليهم ملكاً تولوا عن القتال قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن

---

(١) سورة البقرة: الآية ٩١.

دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1].

ولكن بني إسرائيل الذين اعتادوا على المماطلة، وكثرة السؤال، والتهرب من المسؤولية، وعدم الرضا بشيءٍ يطلب منهم الانصياع له والخضوع إليه، فلما طلب منهم نبيهم أن يخضعوا لطالوت، وجدوا في أنفسهم حرجاً إذ رأوا فقر طالوت وهم يقوّمون الأمور بالمال ولا ينظرون إلى العلم والصلاح، مع العلم أن المال أمر زائل، كما أن النبوة بينهم كانت في أبناء السبط (لاوي)، والملك في أبناء السبط (يهوذا)، فلما كان

(١) سورة البقرة: الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥١.

(طالوت) من أبناء (بنيامين) استغربوا ولم يقبلوا، وإن لم يكن هذا الأمر هو المهم عندهم وإنما الرفض واللجاجة في كل شيء.

وحدث القتال في مرج الصفر جنوب دمشق بينها وبين حوران بين بني إسرائيل وبين خصومهم وذلك في الشمال كما حدث قتال في الجنوب بين إسرائيل وبين أعدائهم الذين يقودهم جالوت، واستطاع داود أن يقتل جالوت واشتهر داود بين قومه، واضطر طالوت أن يتنازل لداود عن الملك، وآتاه الله النبوة إضافة إلى الملك، وكان، عليه السلام، مجاهداً في سبيل الله يقاتل أعداء الله، كثير العبادة والطاعة، وعندما توفاه الله خلفه ابنه النبي سليمان، عليه السلام، بالملك كما بعثه له رسولاً فكان ملكاً رسولاً كما كان أبوه داود قبله.

تابع النبي سليمان، عليه السلام، الجهاد، واستطاع أن يصل إلى دمشق، كما استطاع أن يخضع اليمن، وأن يستذل حكامها من السبئيين، وأن يتزوج ملكتهم بلقيس، وأبقاها على اليمن تخضع لأمره، وقد آمن أكثر قومها، ومن قبل كانوا يعبدون الكواكب والشمس والقمر، وأنه قد جدد بناء المسجد الأقصى الذي شيَّده يعقوب بن إسحاق، عليهما السلام، أو أبوه النبي إسحاق وكان بين بناء البيت الحرام الذي شيده إبراهيم في مكة وبين البيت المقدس الذي أقامه ابنه في القدس أربعون عاماً، واستمر في ملكه عشرين عاماً، وخلفه ابنه رحبعام، وبعده عادت بنو إسرائيل إلى الفرقة والضعف.

وكان الكلدان قد قوي أمرهم في بلاد الرافدين وهاجموا بلاد الشام، وقصد ملكهم (سنحاريب) بيت المقدس، ولكنه عجز عن دخولها، إلا أنَّ بني إسرائيل لم يحاولوا العظة والبعد عن المعصية، وكانوا لا يتناهون عما يجري في المجتمع من منكرات. قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[1] وجاء الكلدان مرة ثانية بقيادة ملكهم (بختنصر) فجاس خلال الديار، وحاصرهم في بيت المقدس، ولما طال عليهم الحصار نزلوا على حكمه، فقتل منهم الثلث، وسبى الثلث، وترك الثلث وهم الشيوخ والعجائز، وهدّم بيت المقدس، وخرَّب الحصون، ودكّ المساجد، وحرق التوراة، وحمل الأموال، وانصرف راجعاً يسوق أمامه السبايا والأسرى والصبيان، وكان ممن أخذ معه (دانيال) أحد أنبياء بني إسرائيل، و (عُزيراً).

وجاء الفرس ـ كما ذكرنا ـ وقضوا على دولة الكلدانيين، ودخلوا بلاد الشام ومصر، وسيطروا على كثير من المناطق، وبقيت لهم الهيمنة مدة من الزمن تقرب من مائتي عام.

وكان الناس ينتقلون من بلاد الشام عن طريق البحر وخاصة الفينيقيين إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط الأخرى، وكانوا قد أسسوا لهم مراكز في كثير من تلك السواحل وخاصة الجنوبية منها، كما كانوا ينتقلون عن طريق البر، هذا بالإضافة إلى أبناء (يافث) وأحفاده الذين تحركوا لجهة الغرب، وكان هذا الانتقال وهذه الحركة باتجاه الأناضول وإلى أوروبا الجنوبية وخاصة الجهات المشرفة على البحر الأبيض المتوسط حيث الدفء والاعتدال، وبذلك فقد عمرت تلك الجهات بالبشر على حين بقيت أوروبا الشمالية خالية تقريباً، وفيما بعد صارت تنتقل إليها قبائل من حوض الفولغا ومن شمال بلاد القفقاس، ونحن نعلم أن المسلمين عندما قاتلوا الأوروبيين الذين قادهم شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء عام ١١٤هـ، كان عدد من القبائل المقاتلة في صفوف شارل مارتل، لا يزال بدائياً إذ كانوا عراة لا يعرفون الثياب بعد. وهكذا عَمُرَ جنوبي أوروبا، وبقي شمالها حتى ذلك الزمن يكاد يكون خالياً، وأكثر المناطق عمراناً أكثر السواحل امتداداً نحو

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٧٨ ـ ٨٠.

الجنوب، ومنها شبه جزيرة البلقان، وشبه جزيرة إيطاليا، وقد كثر السكان فيهما، فأسسوا حكومات، وقوي أمرها، وخرج الإغريق ـ سكان شبه جزيرة البلقان ـ يتوسعون، ويقاتلون من يقف في وجههم، وقادهم الإسكندر الكبير المقدوني فضرب شرقاً حتى وصل إلى وادي السند. أي: دخل بلاد الشام بعد الأناضول، وبلاد مصر، وبلاد الرافدين، وفارس، ووادي السند ثم عاد، وأدركته المنية، فتقاسم قادته ما فتح، فأخذ البطالمة مصر، وكانت عاصمتهم الإسكندرية، وحكم السلوقيون الشام وكانت قاعدتهم إنطاكية، وذلك حوالي عام ٩٥٥ قبل الهجرة.

وقوي شأن الدولة الرومانية التي كان مقرها روما عاصمة إيطاليا اليوم، فورثت الإغريق في مناطق نفوذهم، وسيطرت على سواحل البحر الأبيض المتوسط. وفي الوقت نفسه كان الفرس قد استقلوا بعد أفول نجم الإغريق، وعادت إليهم قوتهم، وبدأوا في صراع مستمر مع الرومان.

وجاءت مجموعة من الجزيرة العربية حوالي القرن الثاني عشر قبل الهجرة، وأقامت في جنوبي بلاد الشام في المنطقة المشرفة على خليج العقبة ووادي العربة، واستطاعت هذه المجموعة أن تنتصر على الدويلات الكنعانية في تلك المنطقة، والدويلات الآرامية، وأن تؤسس دولة عرفت باسم: دولة (الأنباط). وقد اتخذت من مدينة (بطرا) قاعدة لها. وقد امتهنوا التجارة بعد الرعي مما قوى مركزهم الاقتصادي والسياسي، ونتيجة موقع بلادهم فقد كانوا عامل توازن بين الدولتين الإغريقيتين البطالمة في مصر، والسلوقيين في إنطاكية. ولما استطاعت الدولة الرومانية دخول بلاد الشام، ضمت إليها أيضاً هذه المنطقة ـ عام ٧٢٨ قبل الهجرة ـ بعد أن تسرب إلى الأنباط الضعف والوهن، ولقد عبد الأنباط ما عبد غيرهم من الأوثان وقوى الطبيعة، وكتبوا بالخط الآرامي، ثم تطور الخط النبطي حتى كان بصورته العربية القديمة.

وتأسست أيضاً دولة في واحة (تدمر) وسط الصحراء، دولة كانت عامل توازن بين الرومان والفرس، ونتيجة التقاء الطرق التجارية في (تدمر)

فقد أَثْرَت البلاد، وأقيمت الأبنية والقصور، ولكن الرومان استطاعوا الانتصار عليهم في النهاية وأسروا ملكتهم زنوبيا، وزالت تلك الدولة التي لعبت دوراً في الحياة السياسية آنذاك.

وفي القرن السابع قبل الهجرة وصلت إلى جنوبي بلاد الشام قبائل بني غسان الذين انطلقوا من منطقة اليمن إثر سيل العرم بعد خراب سد مأرب، وقد استقروا في منطقة (حوران) عند بئر غسان، وتركوا حياة الرعي، وأقاموا في القصور، وكانوا عمالاً للبيزنطيين يحمون لهم حدودهم ضد غارات البدو وهجمات المناذرة عمال الفرس، ولم تكن لهم عاصمة معينة، إذ كانت لهم بصرى، ثم انتقلوا إلى الجابية، وكلاهما في منطقة حوران، ثم توسع نفوذ الغساسنة نحو الشمال على أطراف البادية، فأقاموا لهم قاعدة بالقرب من مركز سادتهم في دمشق، فاتخذوا (جلق) مقراً لهم، وهي على أطراف دمشق إلى الشمال الشرقي منها، وعلى تسعة كيلومترات في الموقع المعروف اليوم باسم (حرستا)، وإذا كانت العاصمتان الأولى والثانية قد خلفوا فيها بعض الآثار نتيجة وجود الصخور، إلا أنهم لم يخلفوا في (جلق) أي أثر بسبب وجود التراب فقط، وإن كان بعض أسماء مراكزهم لا تزال قائمة إلى الآن مثل البلاط، والحدائق، والنهر الغربي الذي شقوه لتكون قصورهم بين نهرين، ولتروى من النهر الذي شقوه، ولما توسعت دمشق واقتربت من جلق اطلق اسم الجزء على الكل، وغدت جلق كلمة مرادفة لدمشق وقد كان الشعراء يزورونهم في قصورهم ومنهم النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت وهو الذي يقول:

لله در عصابة نادمتهم   بجلق يوماً في الزمان الأول

وانتشرت النصرانية بينهم، وقد استمروا دعماً للرومان حتى الفتوحات الإسلامية حيث وقفوا أيضاً بجانب سادتهم الرومان، وقاتلوا المسلمين بضراوة، وإن كان قليل منهم قد ساعد المسلمين في فتوحاتهم.

أما بالنسبة إلى بني إسرائيل فقد عادوا من بابل بعد أن مات بختنصر

وضعف أمر الكلدان من بعده، وقد بقوا في أسرهم مدة سبعين سنة، ورجعوا إلى بيت المقدس، وأعادوا عمارته من جديد، إلا أن شأنهم بقي ضعيفاً، إذ كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق، ويكذّبونهم، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر الذي يفعلونه، الأمر الذي أبقاهم في ذلة فدانوا للفرس، وخضعوا للإغريق، وحكمهم الرومان، ومن أشهر أنبيائهم في أواخر أيامهم النبي زكريا، عليه السلام، فقد دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى الصلاة والصيام والصدقات فرفضوا ذلك، وجاءهم بالدعوة نفسها ابنه النبي يحيى، عليه السلام، وحثهم على ترك المنكرات فعظم ذلك الأمر على ملوكهم أصحاب المصالح والهوى، فأمروا بقتل النبي يحيى، كما قتلوا أباه النبي زكريا.

واقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يبعث نبيًّا لبني إسرائيل يذكرهم بأيام الله ومنته وفضله عليهم، ويعرفهم بالجانب الروحي، وقد طغت عليهم المادة طغياناً كبيراً، وليذكروا قدرة الله العظيمة، وأنها فوق كل قدرة. وقد هيّأ الله جلّ وعلا لهذا النبي البيئة البيتية لتكون علامة الطهر والصلاح، إذ ولدت الأم التي ستنجبه في بيت الفضيلة، وتربت في مكان العبادة عند نبي من أنبياء الله وهو زكريا، عليه السلام، زوج خالتها، وقد عرفت بالعفة والطهارة والعبادة، وقد نبتت على ذلك قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[1]. هذه الفتاة هي التي اصطفاها الله لهذا الأمر الجليل، وقد حملت من غير أب، فكان ذلك

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ٣٥ ـ ٣٧.

مفاجأة لها غريبة مخيفة ومثيرة، وهي التي لم تعرف الرجال، ولم تتصور هذا الأمر أبداً، وكان مفاجأة لقومها إذ جاءتهم بأمر غريب، وهي المعروفة بينهم بالطهر، والمشهورة عندهم بالعفة، ولما كان هذا الأمر مفاجئاً لهم اتهموها بعفتها، والأمر المستغرب يكون مدعاة لمثل هذا الاتهام. لكن الله سبحانه وتعالى المطلع على كل شيء أراد أن يفاجئهم بأمر غريب آخر يردُّ اتهامهم وينفي كلامهم، ويبين لهم قدرته ومعجزاته التي تظهر على لسان نبيه؛ هذا الطفل المولود حديثاً المهيأ لحمل الرسالة ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده دون سواه، وترك الحياة المادية والزهد فيها. وقد سألها قومها عما فعلت، وقد جاءت تحمل مولودها الحديث، قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[1]. فماذا تتكلم والأمر غريب مفاجئ؟ ولم يكن لها من بدّ من أن تشير إليه، فإذا به يتكلم، وإذا بالأمر أكثر مفاجأة: مولود جديد ينطق بحكمة بالغة ولسان مبين، الأمر الذي أسكتهم، قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[2] وعلى الرغم من أن بني إسرائيل قد بهتوا من كلام الفتى إلا أنهم قد أكثروا الكلام فيه وفي أمه، وكانوا يسمونه (ابن البغية)، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾[3]. ولكن عيسى، عليه السلام، بعد أن تكلم وهو مولود جديد سكت حتى تكلم كما يتكلم الأطفال في سن عادية أو تقرب من السنة. وأخذ إلى مصر هرباً من هيرودس ملك اليهود، ثم رجع وهو في سن الثلاث عشرة تقريباً، وأقام في الناصرة، وبعث في الثلاثين من عمره، وعمِّد في الأردن، وجادل بني

---

(١) سورة مريم: الآيتان ٢٧ ـ ٢٨. (٢) سورة مريم: الآيات ٢٩ ـ ٣٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١٥٦.

إسرائيل كثيراً، ووعظ كل من التقى به، وكان يشفي المريض، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وقد لازمه في دعوته الحواريون وعددهم اثنا عشر حوارياً، واختار سبعين رجلاً معهم وأرسلهم إلى قرى بني إسرائيل وإلى بلاد الجليل في شمالي فلسطين للدعوة والتبشير بعبادة الله، والزهد في الحياة الدنيا، ولما رأى ملك بني إسرائيل أن الأمر كاد يفلت من يده عمل للتخلص منه، وتآمر معه بنو إسرائيل، وشكوه ظلماً إلى حاكم فلسطين من قبل الرومان واسمه (بيلاطس)، وكذبوا عليه، ثم أمسكوه، وسلموه إلى الحاكم الروماني، فقضى عليه بالموت صلباً. ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ذلك به، إذ شُبّه لهم غيره فصلبوه، ورفع الرسول عيسى، عليه السلام.

نزلت الكوارث وحلت البلايا بأتباع الرسول عيسى، عليه السلام، بعد ارتفاعه عن هذه الأرض، الأمر الذي جعلهم يستخفون بديانتهم، ويفرون بها أحياناً، ويستشهدون أحياناً أخرى، وهم في كلتا الحالتين لا شوكة لهم، ولا قوة تحميهم وتحمي ديانتهم، وقد كان قياصرة الروم لا يتورعون عن القتل الذريع في أتباع السيد المسيح ـ عليه السلام ـ وخاصة القيصرين اللذين جاءا بعد القيصر (طيباروس) الذي عاصر السيد المسيح، وفي عهد الثاني منهما دوّن إنجيل متى بالعبرية أو بالسريانية في الحبشة، ومات متى هناك عام ٥٥٢ قبل الهجرة، ثم ترجم الإنجيل إلى اليونانية. ولم يكن الاضطهاد من قبل الرومان فقط، وإنما من قبل اليهود أيضاً الذين كان أذاهم أشد وأنكى، لأنهم يعيشون معهم، وعلى معرفة بهم وبداخلهم.

وزاد الاضطهاد والأذى في عهد نيرون عام ٥٥٨ قبل الهجرة الذي اتهمهم بإحراق مدينة روما، فتفنن في العذاب وطرقه، وفي عهده كتب مرقس إنجيله عام ٥٦١ قبل الهجرة، وكان في مصر، كما دوّن لوقا إنجيله، وفي آخر عهد نيرون سجّل يوحنا إنجيله. وفرّ في هذه المدة قسم من اليهود من بلاد الشام، وسكنوا وادي القرى، ويثرب، وخيبر، وفدك في الحجاز.

ولقي النصارى الاضطهاد في عهد (تراجان) وكثيراً من الأذى، وكذا في عهد القياصرة كلهم، وإن كان بعضهم أقل أذى وأخف وطأة، ولكن أشدهم كان (دقلديانوس) الذي انتقل إلى مصر وقتَّل الكثير منهم، وهدم الكنائس، وأحرق الكتب، وسجن الأساقفة وذلك عام ٣٧٤ قبل الهجرة، واضطر الكثير منهم في كل الدولة الرومانية أن يظهر الوثنية وأن يخفي النصرانية، الأمر الذي جعل الفكر يضم خليطاً من الديانتين، وزاد في ذلك الفلاسفة الذين استخدموا النظريات العلمية اليونانية لتهذيب الآراء الدينية، فالتحمت الفلسفة بالدين التحاماً عضوياً، ونشأ عن هذا اختلاف في الآراء بين أتباع الكنائس، ووجد قسطنطين أن يجمع بين هؤلاء المختلفين، فعقد مجمع (نيقية) عام ٢٩٧ قبل الهجرة، ولم يكن قد اعتنق النصرانية بعد، وإنما كان لا يزال وثنياً، ونشأ في المجمع خلاف كبير فرض عليهم قسطنطين الرأي الأقرب إلى فكره على الرغم من قلة أتباعه، وانقسمت الكنيسة. ووجدت المذاهب المختلفة المتباينة.

وكانت اليهودية قد انتشرت في مناطق ضيقة في جنوبي بلاد العرب، وسكن بعضهم قرى في الحجاز ويثرب، كما انتشرت في بلاد الخزر. أما النصرانية فقد انتشرت في مصر والحبشة ومنها انتقلت إلى بعض جهات الجزيرة مثل نجران، وفي بقية بلاد الشام إضافة إلى فلسطين، وبلاد الرافدين، ثم أصبحت ديانة الدولة الرومانية. أما بقية الجهات فقد كانت تسود فيها الوثنية التي تختلف بين منطقة وأخرى تبعاً لرجالاتها الذين ظهروا فيها، والذين قد يكونون من الصالحين فعبدهم من جاء بعدهم، وأقاموا لهم التماثيل، ففي الهند كان (براهما) ثم ظهر (بوذا)، وفي الصين كان (كونفوشيوس)، وظهر في فارس (زرادشت)، وكذا في أمكنة كثيرة كان ما كان في هذه البلاد وشبيهاً لها. وبقيت بلاد الشام على هذه الحال حتى جاء المسلمون إليها فاتحين.

في مصر وافريقية

ذكرنا أنه بعد طوفان نوح قد اتجه ابنه سام وبعض أبنائه، وحام بن نوح وعدد من أولاده نحو الجنوب، وقد سكن بعض أولاد سام وأحفاده في موطنهم الأول الذي كان قبل الطوفان في جنوبي بلاد الرافدين، كما توزعوا في الجزيرة العربية فمنهم من تابع السير نحو الجنوب الغربي، واستقر بعضهم في الأحقاف، وتابع آخرون طريقهم إلى أن وصلوا إلى اليمن حتى استوطنوا هناك، كما أن جماعات منهم قد ساروا من جنوب العراق مباشرة نحو الغرب حتى وصلوا إلى شمالي الحجاز فأقاموا هناك. أما حام مع أبنائه فقد غزّوا السير مبتعدين عن البلاد التي حدث فيها الطوفان، فمنهم من انتقل إلى الهند وسواء أكان عن طريق البر أم عن طريق البحر، ومنهم من انتقل إلى إفريقية وسواء أكان موجوداً مضيق باب المندب أم لا ـ كما ذكرنا ـ وعندما وصلت هذه الجماعات إلى إفريقية تفرقت هناك بعد أن جاءتهم أنبياؤهم، ورفضوا ما دعوهم إليه، وأصرّوا على عنادهم واستكبارهم، فانطلق (البوشمن) نحو الجنوب الغربي، وقد لحقهم (الهوتنتوت) يقاتلونهم، وقد سلطهم الله عليهم، وأذاق الأولين من الآخرين ظلماً وعذاباً، واندفع وراء المجموعة الثانية أيضاً (البانتو) يعملون فيهم قتلاً وتشريداً، ولم يختلف هؤلاء عن المجموعتين السابقتين في العقيدة. ولكن ليذيق بعضهم بأس بعض ذلك بما عصوا وكانوا يستكبرون في الأرض، ولم تختلف فئة عن أخرى إلاّ أن الثانية تكون أقوى أجساماً وأكثر ظلماً، ويمكن أن نلحظ هذا التفاوت في البنية حتى هذا العصر، فالبوشمن دون الهوتنتوت، وهؤلاء أقل من البانتو بسطة في الأجسام، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا

عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾[1].

وللسبب نفسه سارت مجموعات أخرى حتى دخلت الغابة الإستوائية فاختفت فيها وضاعت بين مجاهلها عن أولئك الذين يلاحقونها أولئكم هم الأقزام الذين لا يزالون يعيشون في تلك البيئة حتى الآن منذ أن رفضوا دعوة أنبيائهم فسلّط الله عليهم الزنوج من البانتو فعملوا فيهم قتلاً وتعذيباً حتى ألجؤوهم إلى تلك المجاهل، فضلُّوا فيها، كما تاه سابقوهم في صحراء (كلاهاري).

وانطلقت جماعة من أولئك الذين نزلوا في شرقي إفريقية نحو الشمال الغربي وكان منهم البربر، كما سارت جماعة أخرى نحو الشمال باتجاه مجرى نهر النيل وفي واديه فأقامت في أسفله، وكان منها المصريون القدماء.

ونتيجة للبيئات المختلفة التي عاشت فيها كل جماعة فقد أثرت عليها مع الزمن، وأعطتها صفة معينة في الجسم والشكل، وسمة خاصة في الحياة الاجتماعية حتى غدت كل واحدة تتميز عن الأخرى بصفات تفرّقها بعضها عن بعض وكأنها ذات أصول متباينة، وأصبحت كل فئة منها رأس قبائل عديدة افترقت عنها وانقسمت منها.

ونتيجة ما كانت تعتقد هذه الجماعات قبل انطلاقها من مكانها الأول يوم جاءتها أنبياؤها بالحق المبين ومقاومةً منها لذلك، وكراهية للنور الواضح، وتمسكاً بما كانت تؤمن، فقد استمرت في عبادتها للأوثان، وتابعت ديانتها القديمة الوثنية بالإضافة إلى ما دخلها مما وجدته في البيئة وبما أخذته من أقوام مجاورين لها في السكن ومشابهين لها في العقيدة فقد جعل لكل جماعة ديانة خاصة بها، وإن كانت تشترك جميعاً في أنها وثنية ظالمة لنفسها.

تكاثر السكان في مصر أكثر من غيرها نتيجة خصوبة التربة والمياه

---

(١) سورة الطلاق: الآيات ٨ ـ ١٠.

الوفيرة التي يحملها نهر النيل، وكانوا على شكل قبائل تعيش على ضفاف النهر، على حين كانت الدلتا آنذاك على شكل أراض مستنقعية ينمو فيها القصب، وكان لكل قبيلة أرضها الخاصة بها، ورؤساؤها، ومعبوداتها، وطقوسها الدينية. وبسبب ما تقتضيه المشروعات العامة من بناء للسدود وشقٍّ للأقنية، فقد وجدت حكومات محلية ضمت كل واحدة منها عدة قبائل أو مجموعة من المدن، وكان لكل حكومة معبودها المعين، وجيشها الخاص بها. ودب التنافس بين هذه الحكومات، وكل منها يطمع في ضم أجزاء إليه، أو أخذ محصولات وفيرة مما عند جيرانهم، أو حماية معبودهم من أن يذل وأن يخزى، وكانت الحرب بين هذه الدول الصغيرة، وتجمعت نتيجة ذلك في دولتين إحداهما في الشمال وعاصمتها (منف)، والثانية في الجنوب وقاعدتها (طيبة) ثم توحدتا على يد (مينا).

كان حاكم مصر يعرف باسم «فرعون»، وهذا الاسم يطلق على جميع الحكام، وينتقل الحكم بالوراثة، «فرعون» ذو صلاحية مطلقة، ويَدَّعي الألوهية، ويستعبد الشعب، ويكلفه بالأعمال سخرةً، ويفعل ما يريد، ويقتل من يشاء دون حساب، وقد أجبر الفراعنة الأوائل الشعب على بناء الأهرامات لهم، فخلَّدوا بذلك ذكرهم، وسجلوا طغيانهم، ولا تزال هذه الأهرامات شاهدة على الظلم آنذاك، والبناء يلعن من أشاده على ظهور أبناء الشعب وجماجم الرجال ويقول: بناء قام على ظلم لا يسمى حضارة لأنه لم يشعر أحد آنذاك بسعادة، وإذا لم يشعر الناس بالسعادة والطمأنينة فليس هناك من حضارة مهما بقي من آثار ومهما بقي من عمران، وفي هذه الأيام وصل الخليل إبراهيم إلى مصر مع امرأته سارة، وأراد فرعون اصطفاء سارة لنفسه، ولكن الله أنقذها منه، وطلب فرعون منهما مغادرة مصر، وأعطاهما (هاجر) خادمة لسارة.

إن الظلم لا يمكن أن يدوم، والقسوة لا يمكن أن تستمر، وصبر الناس لا بدّ من أن ينفد، وتحمّل الأذى له حدود، فقد ثار الناس على حكامهم، وعمت الفوضى، وعادت التجزئة إلى البلاد، الأمر الذي ساعد الرعاة من البلاد الشامية أن يأتوا إلى المنطقة، وأن يصبحوا فيها ملوكاً،

وقد عرفوا باسم (الهكسوس). وفي أيامهم جاء يوسف، عليه السلام، إلى مصر ثم استقدم أباه، وإخوته، وأهله إليه فعاشوا فيها حتى خرجوا منها فيما بعد مع موسى، عليه السلام، وكان هؤلاء الرعاة يعرفون شيئاً من دين إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويميزهم القرآن عن بقية حكام مصر باسم الملوك، على حين يطلق على غيرهم اسم الفراعنة.

لم يكن ملوك الرعاة بأفضل من الذين حكموا قبلهم إذ ورثوا عنهم الاستبداد، وأخذوا عنهم الظلم، وتعلموا منهم استعباد الناس، والاستكبار في الأرض، وبعث الله إليهم يوسف بن يعقوب، عليه السلام، نبياً ورسولاً، ولكن الهوى والمصلحة أعمتهم عن تقبل الحق. فلما اتهمت امرأة العزيز يوسف، عليه السلام، وثبتت براءته، وظهرت خيانتها وكذبها، ومع ذلك فقد أدخلوه إلى السجن ظلماً وزوراً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[1]. ودعاهم يوسف بن يعقوب إلى الحق، ولكن لم يقبلوا منه، وشكّوا فيما جاءهم به، حتى توفاه الله فتنبهوا إلى ما كان يقوله لهم، وقالوا لن يبعث الله بعده أحداً كي نسير معه، تمهيداً لأنفسهم حتى لا يؤمنوا لأحد ولو كان رسولاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[2].

ولما لم يرعوا ملوك الرعاة، ويقبلوا الحق الذي جاءهم به يوسف، عليه السلام، سلّط الله عليهم جماعات أكثر منهم ظلماً فأذاقوهم مرّ العذاب، فأذلوهم، واستضعفوهم، وبدؤوا يقتلون الرجال منهم، ويستحيون النساء، هؤلاء الطغاة هم من سكان وادي النيل الأصليين، إذ قام أحد القادة من الجنوب وهو (أحمس) فانتصر على الشمال وحكامهم من الرعاة، ووحّد البلاد، واستبد بالسكان، وأعطاهم الله الفرصة ليرجعوا إلى الحق، ومكنهم من أعدائهم، ووسع لهم رقعة أرضهم إذ وصلت دولتهم إلى حدود

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣٥.
(٢) سورة غافر: الآية ٣٤.

نهر الفرات أيام (تحتمس الثالث)، و (رمسيس الثاني) اللذين حاربا الحثيين في بلاد الشام، وانتهت الحروب بين الدولتين بصلح بعد معركة (قادش) المشهورة. ومع هذا الامتداد الواسع للدولة، والخيرات الكثيرة التي جاءتها من كل مكان، ما كانوا ليؤمنوا ويأخذوا العبرة من غيرهم، ومما حدث لأسلافهم، وبما تمَّ لخصومهم، فلم يتعظوا، بل زادتهم الخيرات بطراً، والنعمة كفراً، والعمران تكبراً، والقوة ظلماً، وأخذوا حيطة من الذين يمكن أن يخلِصوهم الحكم وهم الرعاة، لذا قرروا قتل رجالهم واستحياء نسائهم لتبقى لهم السيطرة في الأرض، والتمكُّن في البلاد، قال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾(1).

أرسل الله إلى هؤلاء جميعاً موسى، عليه السلام، ليكون منقذاً لهم مما هم فيه من الظلم والطغيان، ومحذراً لهم من عاقبة الأمر إن استمروا في غيِّهم وتمادوا في عتوهم، وكان فوق كل هذا من عدوهم الذين يخشون أن يقهرهم ويغلبهم على أمرهم، وقد نجا موسى، عليه السلام، من القتل، بإذن الله، وبطريقة أدت إلى أن يربيه فرعون في بيته، ويشرف عليه بنفسه ليكون له في المستقبل عدواً وحزناً، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى

(1) سورة القصص: الآيات ١ ـ ٦.

بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

لقد نشأ موسى، عليه السلام، نشأة قوية بإذن الله، وأصبح رجلاً يُخشى بأسه، وعلم أنه ليس من آل فرعون، وإنما تربى هو عندهم، لظلمهم وقسوتهم على الرعاة عامة وبني إسرائيل خاصة، وأنه يمت بالأصل إلى بني إسرائيل الذين خافوا على ابنهم من القتل فألقوه في اليم، ولربما كان هذا العلم قد جاءه من أمه التي أرضعته واعتنت به صغيراً فكان يلقاها أو يزورها على علم من فرعون وهو لا يعلم الصلة بين موسى وأمه، ويظن أنه يقرّ لفرعون وأهله بالطاعة، وأنه يعتقد أنه منهم، فبينهم نشأ، وعندهم تربى، وبصلته مع أمه ومن يلتقي بهم عندها صار عنده ميل إلى قومه بني إسرائيل بالفطرة، وكان بعض بني إسرائيل يعرفون ارتباط موسى بهم، ولما كان الخلاف قائماً بين المصريين الأصليين وبين الرعاة، ومنهم بنو إسرائيل فإنه من المحتمل أن يحدث تماس بين الأفراد الذين يعيشون معاً في كل وقت، وأن تندلع شرارة الفتنة في كل لحظة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا

---

(١) سورة القصص: الآيات ٧ ـ ١٣.

بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وصل موسى، عليه السلام، إلى بلاد مدين، ووجد على بعض مائها جماعة يسقون أغنامهم، ولمح امرأتين تمنعان أغنامهما من الورود إلى الماء حتى ينصرف الرعاة إذ لا تريدان الاحتكاك بهم، ووجد الأمر غريباً، فسأل الفتاتين وعرف سبب تأخرهما فأكبر فيهما العفة والحشمة، وأقبل بصورة الرجل الشهم صاحب النخوة والمروءة، وهو الذي آتاه الله القوة فرد أغنام الرعاة، ورفع الصخرة عن البئر، وهي الضخمة التي يعجز عن رفعها عدة رجال، فاستغرب القوم فعلته وقوته، ثم سقى للفتاتين غنمهما، وتركهما تسيران إلى قصدهما، وذهب هو يستظل تحت شجرة هناك، يجد الراحة، ويسبح فكره إلى الوراء وماذا خلّف في مصر؟ ولا يعرف أحداً في هذه الديار، وبينما هو كذلك إذ جاءته إحدى الفتاتين تطلب منه أن يسير معها إلى أبيها ليتعرف عليه إكراماً لما قام به...... ولم يكن له إلا ليمتثل، وسار أمامها بسبب الريح بعد أن كان خلفها... ووجد أباها.. فتعارفا، ووجده رجلاً صالحاً، وطمأنه على أنه قد وصل إلى كنف الأمان.... واستأجره ليعمل عنده ٨ ـ ١٠ سنوات مقابل أن يزوجه إحدى ابنتيه، وعمل عنده، وتم العقد.

انتهت المدة التي اتفقا عليها موسى، عليه السلام، وأبو زوجه، ذلك الرجل الصالح، فأراد أن يعود بأهله من حيث جاء من مصر ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وفي الطريق بعثه الله وأمره أن يسير إلى فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ

---

(١) سورة القصص: الآيات ١٤ ـ ٢٢.

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

رأى موسى عليه السلام أن المهمة صعبة فهو يخاف على نفسه من القتل في مصر، إذ كان قد قتل نفساً وفرّ منهم عندما علم أن القوم يريدون أن يقتلوه، وكذلك فهو ليس بالفصيح إذ يتلعثم أثناء الحديث، ولكن المهمة لا بدّ له من أن يقوم بها ويؤديها، فدعا ربه أن يدعمه بأخيه هارون الذي هو أفصح منه لساناً، فاستجيبت دعوته، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾[2].

---

(١) سورة القصص: الآيات ٢٣ ـ ٣٢.

(٢) سورة القصص: الآيات ٣٣ ـ ٣٥.

وسار موسى، عليه السلام، حتى دخل مصر خائفاً يترقب، ووصل إلى داره، وكلّم أخاه هارون، فوجد أنه قد أوحي إليه، وأوكل بالمهمة مع أخيه موسى، عليهما السلام، ولكنهما خافا من الذهاب إلى فرعون خشية طغيانه على الرغم مما أوحي إليهما بالاطمئنان وعدم الخوف، ولكنها النفس البشرية، قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾[1].

ولقد هزتهما الآية هزاً ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ وهزت مشاعرهما، فالله الذي بيده كل شيء، ويملك نفس فرعون وغيره إن شاء أخذها في كل لحظة، إنه معهما يسمع ما يقولون وما يردّ عليهما فرعون ويرى ما يتصرف، فعليهما إذن ألا يخافا.

ذهب موسى وهارون، عليهما السلام، إلى فرعون، وكان اللقاء الأول ونأخذه من كتاب الله ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾[2].

ولما وجد فرعون نفسه عاجزاً عن الجواب أمام الحق الواضح لجأ إلى إظهار المنة والفضل على موسى في التربية والتنشئة، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى

---

(١) سورة طه: الأيات ٤٢ ـ ٤٧.
(٢) سورة طه: الآيات ٤٨ ـ ٥٦.

رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

وفي اللقاء الثاني أراد فرعون أن يظهر قوته على موسى وأخيه هارون، وأن يهدد من يفكر في الإيمان بما جاء به من قومه، وأن يسخر من قول نبي الله.... فجمع لذلك حشداً من الناس من أعوانه ومخلصيه وبعض وجهاء بني إسرائيل وعندما حضر الجمع بدأ فرعون بتوجيه السؤال إلى موسى، عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[2]. وهذا فعل الجبابرة والطغاة إذ جاءهم الحق قالوا لمن يحمله إنه مجنون، واتخذوا طريق التهديد. وعندما جاءهم موسى بالآيات البينات قال فرعون عنه: إنه ساحر. ووجه السؤال إلى وجهاء بني إسرائيل أنه يريد أن يسير بكم ويخرجكم من أرضكم فما رأيكم؟ فما كان منهم إلا أن يقولوا له: افحص سحره مع كبار السحرة، وكان السحر شائعاً آنذاك ومنتشراً، فاستحسن فرعون هذا الرأي، وضرب موعداً لموسى ليلتقي مع السحرة، ليريه وليري الناس جميعاً أن موسى قد تعلم السحر أثناء غيابه، وهو يستعمله ليخرج بني إسرائيل من مصر.

وجاء اليوم المحدد، وَجُمِعَ الناس، وجاء السحرة، وخرج فرعون وحاشيته، وجاء موسى، عليه السلام، ووقف فرعون خطيباً في ذلك الحشد ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٨ ـ ٢٢. (٢) سورة الشعراء: الآيات ٢٣ ـ ٣٧.

تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾»[1]. هذه المفاهيم التي تقوم عليها الجاهلية دائماً وفي كل مكان، يقوّمون الأمور بالمادة، ويقدرون الرجال بها، ويعرفون الحق بواسطتها، وأحب السحرة أن يستفيدوا من هذا الخلاف فوقف كبيرهم، فقال تعالى: «وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾»[2]. ووقف موسى، عليه السلام، خطيباً في الحشد ووجه كلامه للسحرة فقال تعالى: «قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾»[3]. ثم تكلم السحرة فقال كبيرهم: «فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾»[4]. قال تعالى: «قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾»[5]. وخاف موسى، عليه السلام، مما رأى «قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾»[6] فبطل الباطل، وظهر الحق، واهتاج أصحاب البغي والعدوان، وألقيت الكلمات جذافاً، قال فرعون: «قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾»[7].

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ٥١ ـ ٥٤.
(٢) سورة الأعراف: الآيتان ١١٣ ـ ١١٤.
(٣) سورة طه: الآية ٦١.
(٤) سورة طه: الآيات ٦٢ ـ ٦٥.
(٥) سورة الشعراء: الآيتان ٤٣ ـ ٤٤.
(٦) سورة طه: الآيات ٦٦ ـ ٧٠.
(٧) سورة طه: الآية ٧١.

قال السحرة: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾[1] لقد قتل فرعون السحرة، وبطش بالناس، فدب الخوف ووقع الذعر، ولذا لم يؤمن مع موسى، عليه السلام، إلا القليل وحتى من قومه خوفاً من فرعون وملئه، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[2].

وابتدأت المفاصلة بين المؤمنين والكافرين فسكن المؤمنون بعضهم بجانب بعض، واتخذوا بيت موسى قبلة لهم بناءً على أوامر ربهم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾[3].

وأخذ الله آل فرعون بالسنوات العجاف، ونقص الأموال، وقلة الأثمار لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتوبون إليه، ولكن ذلك لم ينفعهم شيئاً، ولكن إذا جاءهم الخير حسبوا ذلك لحسنٍ في أعمالهم وتخطيطهم، وإذا أصابهم الشر تشاءموا وقالوا لوجود موسى بيننا، ويظن بعضهم أن هذا من قوة سحر موسى فما يزيدهم ذلك إلا عتواً في الأرض واستكباراً، ثم أرسل الله عليهم الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع لعلهم يتذكرون بهذه الآيات. فما كان لينفعهم، وإنما كلما جاءتهم آية قالوا: يا موسى ادع لنا ربك يزيلها عنا فإذا تمّ آمنا بما آمنت، ولنرسلنّ معك بني إسرائيل كما تريد وترغب، حتى إذا خفف الله عنهم نكثوا بعهودهم، ونقضوا ما وعدوا به، وتنكروا لما قالوا... حتى جاء أمر الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا

(١) سورة طه: الآية ٧٢.
(٢) سورة يونس: الآية ٨٣.
(٣) سورة يونس: الآية ٨٧.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[1].

ووقف بجانب فرعون كل قوى الشر، وأصحاب المصالح ولو كانوا من قوم موسى، ووقف بجانب موسى، عليه السلام، كل قوى الخير ولو كانوا من قوم فرعون. وتضافرت عناصر السوء فكان يمثل الطغيان فرعون، ويمثل المصلحة هامان، ويمثل قارون أولئك الذين أبطرتهم النعمة، مع أن قارون كان من قوم موسى ولكن مصلحته اقتضت أن يكون بجانب فرعون، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[2]. ويقول الله سبحانه وتعالى في شأن هذه القوى الثلاث: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾[3]. أما الذين آمنوا من آل فرعون فقد كانوا يكتمون إيمانهم خوفاً من فرعون ورهباً من سلطته، فلما كان انقسام الفريقين والمفاصلة التامة بدأ كل يأخذ صفه إما بين المؤمنين أو بين الكافرين إذ لا رابطة غير رابطة العقيدة، ولا وشيجة تقوم بين الطرفين غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٣٠ ـ ١٣٥. (٢) سورة القصص: الآية ٧٦.

(٣) سورة غافر: الآيات ٢٣ ـ ٢٦.

جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

وكان فرعون يتهكم ويحاول أن يظهر سلطته وقوته وأن بإمكانه أن يفعل الكثير والمستحيل، وكان هامان يظهر أيضاً أنه ينفذ كل ما يطلبه فرعون ولو كان مستحيلاً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[2].

ولما كثر ظلم فرعون وقومه وحاشيته، وزاد فسادهم، ولم يرعووا مع كثرة الآيات كان لا بدّ من أن ينالهم ما نال الأقوام التي سبقتهم، فأوحى الله إلى موسى أن يسير مع بني إسرائيل باتجاه الشرق، ولحقهم فرعون وجيشه وكبار قومه، فكانت النتيجة أن غرق الظالمون بكفرهم، ونجا موسى وقومه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾[3].

---

(١) سورة غافر: الآيات ٢٨ ـ ٣٤.　　(٢) سورة غافر: الآيتان ٣٦ ـ ٣٧.

(٣) سورة طه: الآيات ٧٧ ـ ٧٩.

ومع موت فرعون وأسرته وكبار قومه ضعفت الدولة، ولما يبق فيها من يتسلم الأمر، وكانت دولة الفرس قد قويت، فاتجهت نحو مصر ودخلتها بقيادة (قمبيز)، واستمر الفرس، حتى قوي أمر الإغريق، فجاء الإسكندر الكبير المقدوني، واحتلها عام ٩٥٤ قبل الهجرة، ومع وفاة الإسكندر حكم البطالمة خلفاء الإسكندر مصر، ثم جاء الرومان، وأصبحت مصر ولاية من ولاياتها، ثم انتشرت فيها النصرانية، وأضحت كنيستها خاصة، وتختلف عن كنيسة الدولة الرومانية الأمر الذي جعل بينهما خلافاً، وعرف سكانها بالقبط أو الأقباط، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام، فأنقذ السكان مما هم فيه.

في جزيرة العرب

ذكرنا أن سام بن نوح قد انحدر مع أبنائه وذريته من الجبال حيث رست سفينة أبيه، وبعد مدة من الحياة هناك اتجه إلى جنوبي بلاد الرافدين مهدهم الأول، فاستقرت هناك جماعة تكاثرت فيما بعد وعرفت باسم السومريين، على حين انطلقت جماعات أخرى وتوزعت في الجزيرة العربية، ومنهم عاد، وثمود، وجديس، والعماليق، وإذا كانت العماليق قبيلة خاصة إلا أن هؤلاء كانوا كلهم من العمالقة إذ كانت أجسامهم أكثر طولاً من الذين ظهروا فيما بعد، كما أنهم كانوا من الذين يمتد بهم العمر أكثر، ونستطيع أن نعد سكان الجزيرة قد كانوا كلهم بهذا الشكل حتى عام ١٦٠٠ قبل الهجرة تقريباً، وإن بقي لهم أحفاد إلى ما بعد ذلك، وعرفوا بهذا الاسم، وإن لم يكونوا يحملون ذلك الجسم من الطول، ولا يعمرون ما كان يعمر به أسلافهم.

وفي هذه البيئة المتشابهة في هذه المنطقة كلها، ظهرت بداية اللغة التي عرفت فيما بعد باسم (العربية)، ومنها حملت البيئة اسمها فأصبح يطلق عليها (بلاد العرب).

أما عاد فقد أقاموا في منطقة الأحقاف في الوادي الذي يعرف اليوم باسم حضرموت، وامتدوا حتى البحر، حيث تعد مدينة (الشحر) التي تقع على الساحل شرق مدينة (المكلا) من المدن التي أقيمت على أنقاض ما أشادت عاد. وتعد قبيلة عاد أنها أول قبيلة عبدت الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة وهي (صدا) و (صمودا) و (هرا)، وكانوا أقوياء أصحاب شدة وبأس، وقد أشادوا القصور العالية فوق المرتفعات،

وأجرى الله لهم الوادي، فزرعوا الوادي وسقوا زراعاتهم، فكانت الجنات ذات الزروع والعيون، وعتوا عن أمر ربهم، فأرسل الله إليهم نبياً منهم هو هود، عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله جلّ شأنه، فردّوا ذلك، وأخذتهم العزة بالإثم، وغرّتهم قوتهم، وما شيدوا، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

وكانوا قد كثروا وزاد عددهم حتى انتشر (قحطان بن عاد) وذريته في اليمن، وأسسوا مجموعة خاصة. أما عاد فعندما عتوا عن أمر ربهم أهلكهم بريح صرصر، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾[2].

وأما ثمود التي أقامت في الحجاز بين المدينة وتبوك في شمال وادي القرى في منطقة (العلا)، وقد كانت بعد هلاك قوم عاد، ونطقوا بالعربية أيضاً. وجعلوا أوثاناً لهم عبدوها من دون الله، فأرسل الله إليهم صالحاً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فرفضوا ذلك، وردّوا عليه كما

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ٦٥ ـ ٧٢.
(٢) سورة الحاقة: الآيات ٦ ـ ٨.

ردّت الأقوام الأخرى، فقالوا: مجنون، وقالوا: ساحر، وسفيه و.... وقد اجتمعت ثمود يوماً في ناديها؛ فجاءها رسول الله صالح، عليه السلام، فدعاها إلى الله، عز وجل، وذكّرهم، وحذّرهم، ووعظهم، فأرادت سفهاء القوم أن تسكته بطلب معجزة، فقالت له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة بشكل معين، وبدؤوا يضعون لها أوصافاً معينة حتى انتهوا قالوا: إن فعلت ذلك آمنا بما جئتنا؛ وإلا فنحن على غير استعداد لأن نستمع إليك بحرف واحد، فأنت وما تشاء، فأخذ عليهم عهداً وموثقاً بما قالوا، ثم انصرف يدعو ربه، فاستجاب له، وكانت الناقة، فقال لهم صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[1]. ولهذه الناقة يوم تشرب فيه ماء ينبوع البلدة، وللسكان يوم يشربون فيه، ولهذه الناقة أن ترعى حيث شاءت، فآمنت جماعة من قوم صالح، واستمرت جماعة أخرى على كفرهم وضلالهم وعنادهم، وقد تضايق المنكرون من أمر هذه الناقة، فاجتمعوا واتفق رأيهم على أن يعقروها، وينتهوا منها، وأغرت بعض النساء سفهاء القوم بقتل الناقة، وكان عددهم تسعة رجال قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾[2]، وقد حسّن هؤلاء الرهط للقبيلة قتل الناقة، وأقدموا هم على عقرها، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾[3]. فمكثوا ثلاثة أيام حسب ما وُعدوا، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾[4]، وبعد هذا الموعد جاءتهم صيحة من السماء، من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، فأصبحوا جاثمين في دارهم جثثاً لا حراك فيها كأن لم يغنوا فيها. وقد فكروا بقتل صالح وتآمروا على ذلك، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٣.
(٢) سورة النمل: الآية ٤٨.
(٣) سورة الأعراف: الآية ٧٧.
(٤) سورة هود: الآية ٦٥.

مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[1].

وأقام إسماعيل، عليه السلام، مع أمه هاجر في جبل (فاران) وهي أرض مكة، وانبجست مياه عين زمزم وكانت قبيلة (جرهم) قد جاءت من اليمن باتجاه الشمال، ومروا على تلك المنطقة، ووجدوا الماء، فطلبوا من (هاجر) أن تسمح لهم بالإقامة بالقرب منها على مقربة من الماء، فوافقت، ونشأ ابنها إسماعيل بينهما، وتعلم لغتهم فاستعرب، وتزوج منهم بعد أن ماتت أمه هاجر.

وكان إبراهيم الخليل يزور أهله وولده بين المدة والأخرى، يطمئن عنهم، ويتفقد الأحوال، وقد قام مع ابنه إسماعيل، عليهما السلام، في بناء البيت الحرام، وذلك في حدود عام ٣٨٠٠ قبل الهجرة. وبعث إسماعيل بن إبراهيم نبياً ورسولاً لأولئك القوم الذين عاشوا بالقرب منه.

وفي الوقت نفسه كان ابن إبراهيم الخليل الآخر وهو مدين من زوجه (قنطورا بنت يقطن) يعيش في المنطقة الشمالية الغربية من الجزيرة العربية، والتي تعرف اليوم باسم بلاد مدين، ولما كثرت ذريته من بعده، وبدؤوا يصدّون عن سبيل الله ويبغونها في الأرض عوجاً، أرسل الله إليهم رسولاً منهم يذكّرهم بآيات الله عليهم، وهو نبي الله شعيب، عليه السلام، ويبدو أنه كانت لهذه القبيلة منطقة واسعة تشمل الأودية المتجهة نحو خليج العقبة ونحو شمالي البحر الأحمر الذي توجد فيه اليوم ما يسمى باسم (مغاير شعيب)، وكانوا في هذه الجهة ينقصون الكيل والميزان فإذا وزنوا للناس أنقصوهم حقهم، وإذا كالوا لأنفسهم زادوا في نصيبهم. كما شملت المنطقة أرض تبوك، وسكان هذه الجهة قد عبدوا شجرة ضخمة وسط الأيكة وهي غابة معروفة هناك، إضافة إلى عدم الوفاء في الكيل والميزان. وشملت المنطقة أيضاً جزءاً من أرض معان جنوبي الأردن المعروفة الآن، وقال

---

(١) سورة النمل: الآيتان ٤٩ ـ ٥٠.

تعالى في حق المجموعة الأولى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾[1].

فرفضوا دعوته، وتنكّروا إلى ما أمرهم به، وأبوا أن يتركوا قطع الطريق، وأخذ عشر أموال المارة، ولما أصروا على بغيهم وتنكرهم للطريق المستقيم أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جثثاً كأن لم يحيوا فيها، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾[2]. وكذلك كان شأن أصحاب الأيكة سكان تبوك، إذ اتهموا نبيهم شعيب بالسحر، وطلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب إن كان صادقاً، فإنهم لا يخافون، ويعلمون عدم صدقه، وعدم صحة ما يقول، وأنزل الله في حقهم ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾[3] إذن جاءت الصيحة إلى جماعة من قوم شعيب، وأصاب جماعة أخرى منهم

---

(١) سورة هود: الآيات ٨٤ ـ ٨٧.
(٢) سورة هود: الآيتان ٩٤ ـ ٩٥.
(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٧٦ ـ ١٨٩.

عذاب يوم الظلة. ويبدو أن شعيباً كان ذا قوة فيهم، وعصبية كبيرة أخافتهم من قتله، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾[1].

ومن أبناء عاد (قحطان) الذي أقام في منطقة اليمن وكثر نسله، فعمروا اليمن، وتزايدوا بسرعة، فكانت تخرج منهم جماعات باتجاه الشمال والشمال الشرقي، ومنهم قبيلة جرهم التي أقامت في مكة، وصاهرت إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام.

ولقد أقام القحطانيون في بلاد اليمن دولة اشتهر أمرها، وكثرت أسفارها، وركب البحر أبناؤها، وعرفت هذه الدولة باسم (معين)، وكان مركزها يقع إلى الشمال الشرقي من صنعاء، وحكمتها أسرة دامت مدة من الزمن، ثم دالت، وجاءت أسرة أخرى عرفت باسم (سبأ) نسبة إلى جدها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وقد اهتمت بالزراعة، وأقامت لذلك السدود، وكان من أشهرها سد مأرب، وقد عبد أهل سبأ الشمس والقمر والنجوم، ولم ينتبهوا إلى ما أصاب غيرهم من الأمم المجاورة، وكان من آخرهم (بلقيس) التي انتقلت إلى جهات الشام في عهد سليمان بن داود، عليهما السلام، حوالي العام ١٦٠٠ قبل الهجرة الأمر الذي جعل الدولة ضعيفة، فأهملت شؤون الزراعة، وضعفت العناية بالسدود، فتهدمت، وانهار سد مأرب فكان سيلاً عارماً جعل الناس يفرون من منطقتهم، ويتجهون إلى مختلف الجهات، وانقلبت الجنان الوارفة والحدائق الغناء إلى مناطق شبه جافة لا ينبت فيها إلاّ الأثل وقليل من السدر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ

---

(١) سورة هود: الآيتان ٩١ ـ ٩٢.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾[1].

وذلك جزاؤهم إنهم لم يؤمنوا كما آمنت ملكتهم بلقيس، ولم يقبلوا دعوة سليمان بن داود لهم، بل لجّوا في عتوهم فظلموا أنفسهم، فعاقبهم الله بذلك العقاب المادي البسيط عسى أن يرجعوا إلى أنفسهم.

لم يخرج كل أهل اليمن من بلدانهم بعد خراب سد مأرب، وإنما بقيت جماعات منهم متفرقة متوزعة بعيد بعضها عن بعض، الأمر الذي أدى إلى ظهور عدد من الإمارات الصغيرة، تشمل الواحدة منها منطقة زراعية، تسمى (محفداً)، ويعرف سيدها باسم (ذو) أي صاحب، ويجتمع عدد منها بيد أحد (الأذواء) فتؤلف (مخلافاً)، ويسمى سيدها (قَيْل)، ولذا فقد كانت اليمن تتألف من عدد من المخاليف، التي تشكل منها النواة الأولى للدولة. وكانت منطقة (ظفار) قد بدأ يعلو اسمها، فلما انهارت دولة (سبأ) حلت محلها حكومة ظفار وعرفت باسم دولة حمير. وأصبح الملك يعرف باسم (ملك سبأ وحضرموت وذو ريدان) على حين كان أيام المعنيين يسمى ملكاً، وأيام سبأ أطلقوا على الحاكم في البداية اسم (مكرب)، ثم أعطوه لقب ملك. ولكنه في أواخر دولة حمير أصبح يعرف باسم (تبع) وجمعه (تبابعة). وازدهرت تجارة أهل اليمن في عهد كل دولها فوصلت إلى الشام شمالاً، وقطعت اليمّ باتجاه إفريقية والهند. وعندما قويت دولة الرومان رغبت في السيطرة على البحر الأحمر لتأمين تجارتها، ولكن عجزت لوجود الدولة اليمنية التي وقفت في وجه (جالوس) حاكم مصر من قبل الرومان.

وكانت القبائل التي بقيت في اليمن بعد خراب سد مأرب هي:

---

(١) سورة سبأ: الآيات ١٥ ـ ١٩.

مذحج، وكندة، وحمير، والأشعريون، وبجيلة، وأنمار، ومن أنمار كانت خثعم.

أما القبائل التي خرجت فهي الأزد واتجه فرع منها نحو عُمان، وعرفت هناك باسم أزد عمان، واتجه فرع آخر نحو جبال عسير وعرف باسم أزد شنوءة، والغساسنة الذين ذهبوا إلى الشام، والمناذرة الذين أقاموا بالعراق، والأوس والخزرج الذين سكنوا يثرب، وخزاعة التي حلت في مكة محل جرهم.

وكانت بعض فرق من اليهود قد جاءت لقتال العمالقة في بلاد الحجاز، فقضت على أكثرهم، وأقامت مكانهم في تيماء، وفدك، وخيبر، ووادي القرى، ويثرب، وكانت تفرّ إلى هذه القرى بعض الجماعات اليهودية عندما تحلُّ بدارهم قارعة، أو يحلّ بهم عذاب أليم سواء أكان أيام بختنصر البابلي أم أيام الرومان، وقد استطاع بعضهم أن يصل إلى اليمن وأن يؤثر على آخر ملوكها وهو (يوسف ذو نواس) الذي تعصب لعقيدته، وجاء إلى نجران وكانت النصرانية قد انتشرت بين أهلها ولم يلحقها بعد التحريف الذي لحق غيرها من المناطق، فدعاهم إلى عقيدته، فأبوا عليه، فأحرقهم في الأخدود، ونجا أحدهم فسار إلى قيصر الروم فطلب منه نجدتهم ما داموا يحملون عقيدة واحدة، فأرسله إلى الحبشة، وكانت قد انتشرت بين أهلها النصرانية واتبعها غالبية السكان، فبعث النجاشي حاكم الحبشة جيشاً قوامه سبعون ألفاً وعليه (أرياط) ومعه (أبرهة الأشرم)، واستطاع هذا الجيش أن يدخل اليمن، وأن يقضي على دولة حمير، ويتخلص من ذي نواس، ويصبح (أرياط) حاكم اليمن من قبل الحبشة، إلا أن أرياط لم يلبث أن اختلف مع أبرهة الأشرم، واستطاع الأخير أن ينتصر، وأن يقضي على خصمه، وأن يصبح سيد اليمن، ولم يكن لملك الحبشة بد من أن يعترف بهذا التغيير.

بنى أبرهة الأشرم كنيسة كبيرة في صنعاء، وأسماها، (القليس)، وأخبر بذلك ملك الحبشة، وأراد أن يوجه أنظار العرب إليها ليحجوا إليها

بدلاً من بيت الله الحرام في مكة، ولكنه لم يستطع، لذا قصد الكعبة ليهدمها كي يضطر العرب للحج إلى القليس وسار بجنده، وكلما حاربته قبيلة انتصر عليها، حتى وصل إلى الطائف، فاستقبلته ثقيف، وأرسلت معه (أبا رغال) ليدله على الطريق، إلا أن الله قد ردّه بأن أرسل عليه طيراً أبابيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾[1]. فهلك أبرهة وأكثر جنده، فقام ابنه (يكسوم) من بعده في اليمن، ثم أخوه مسروق بن أبرهة، وبعد ذلك استعاد الحكم سيف بن ذي يزن الحميري الذي سار إلى الروم فلم ينصروه، فذهب إلى النعمان بن المنذر عامل الفرس على الحيرة، فوفد به إلى كسرى ملك الفرس فأنجده، وانتصر على الحبشة، وقتل مسروق بن أبرهة واستعاد ملكه، بعد أن حكمت الحبشة اليمن اثنتين وسبعين سنة، وبقي الفرس في اليمن حتى بعثة رسول الله ﷺ، وكان والي الفرس على اليمن هو (باذان) وقد دان بالإسلام هو ومن معه. والعرب الذين أقاموا باليمن ومن خرج منها قد عرفوا بالعرب العاربة لأنهم أصل العرب وأول الذين تكلموا العربية إذ أنهم ينتمون إلى قحطان بن عاد من نسل سام بن نوح، عليه السلام.

وأما العرب المستعربة فهم الذين ينتمون إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، إذ لم يتكلم العربية حتى جاورته قبيلة (جرهم) وصاهرها، وتعلم العربية منها، وعندما توفي تولى مكانه ابنه نابت، ثم تغلبت (جرهم) على مكة وحكمتها، واستمرت في حكمها حتى بغت، وأكثرت الفساد فيها، وغدت الفاحشة في البيت الحرام، وزنا رجل اسمه (أساف) بامرأة يقال لها (نائلة)، وكانت عقوبة الله عليهما مباشرة، وكان لهما تمثالان في الكعبة، ليعتبر الناس، وكان أن أدى إلى عبادة هذين التمثالين فيما بعد. ولم يحدث قتال بين (جرهم) وبني إسماعيل مع كثرتهم وشرفهم لصلة القربى بينهما ولحرمة البيت.

---

(١) سورة الفيل: الآيات ١ ـ ٥.

وجاءت خزاعة من اليمن إثر سيل العرم، وسكنت قرب مكة، فلما بغت (جرهم) قامت إليها خزاعة، ووقف بنو إسماعيل على الحياد، فتغلبت خزاعة، وأجلت جرهم عن البيت، فعادت إلى اليمن على حين حكمت خزاعة مكة، وفي أيامها دخلت عبادة الأصنام، إذ أن أحد حكامها وهو (عمرو بن لحي الخزاعي) قد خرج من مكة إلى الشام، فلما وصل إلى (مؤاب) من أرض (البلقاء) وجد فيها قوماً من العماليق يعبدون الأصنام، فقال لهم: وما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنماً يقال له (هُبل) فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه. كما يقال: إن بني إسماعيل وكانوا قد أبعدوا عن أمر البيت فكانوا إذا خرجوا منها أخذوا معهم حجراً من حجارتها، فإذا أظعنوا في مكان وضعوه، وطافوا به على أنه جزء من الكعبة، فانتشرت بعد ذلك عبادة الأصنام والأوثان. وهكذا بُدّل دين إبراهيم، عليه السلام، ولم يبق من أثره إلا تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة، والوقوف على عرفات ومزدلفة، وهدي البُدن، والإهلال بالحج والعمرة.

وتكاثر بنو إسماعيل، وكانت كنانة قد أقامت قريباً من البحر، إلى الغرب والجنوب الغربي من مكة، وقريش فرع منها، إذ أن قريش إنما هو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقد استطاع أحد وجهاء قريش وهو قصي بن كلاب الجد الرابع لرسول الله ﷺ أن يجُلي خزاعة عن مكة، وأن يحلّ هو محلّها، وكان سيد قريش آنذاك. وكان لقصي من الأولاد عدد أشهرهم عبد مناف الذي كان له هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل فتقاسموا الزعامة، ونافس أمية بن عبد شمس عمه هاشماً، وكان لهاشم عبد المطلب الذي كان سيد مكة يوم حاول أبرهة الأشرم غزوها، ولما رأى أنه لا يستطيع ردّ الأحباش عنها خرج إلى ظاهر مكة وقال: إن للبيت رباً يحميه، فردّ الله كيد الأحباش في نحرهم، وأهلكهم بالطير الأبابيل ـ كما ذكرنا ـ وعرف هذا العام بعام الفيل إذ كان أبرهة يركب فيلاً عظيماً، وفي

هذا العام ولد سيد البشر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، عليه أفضل الصلاة والسلام، قبل الهجرة باثنين وخمسين عاماً.

وكان أبناء إسماعيل قد توزعوا في أماكن متعددة فكل من ينتمي إلى فهر (قريش) يعد قرشياً، وهم اثنا عشر بطناً، ومن لا يتصل به من ولد إسماعيل يعد من العرب المستعربة أو العدنانيين، وليس من قريش. ومن أشهرهم: عبد القيس في البحرين، وبنو حنيفة في اليمامة، وتغلب في الجزيرة الفراتية، وعبس، وشيبان، وغطفان في نجد، وثقيف، وسليم، وهوازن في شرقي مكة وشمالها، وغفار، وجهينة، وبلى، وتنوخ على الساحل، وأشجع، وفزارة حول المدينة.

وانتشرت عبادة الأصنام في كثير من ديار العرب، فقد كان صنم (ود) في دومة الجندل (الجوف)، وهو لكلب وقضاعة، وكان (يعوق) لقبيلة مذحج، وكانت أرض الطائف مقره، وكان (نسر) في اليمن، وتعبده حمير، وهو على شكل طير، كما كان (يغوث) بأرض اليمن أيضاً، وتعبده همدان.

إذن فإن الأنبياء الذين جاءوا لسكان بلاد العرب كان عددهم قليلاً، وذلك قبل محمد بن عبد الله وهم: هود وقد كان في الأحقاف حوالي عام ٤٦٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لقبيلة عاد.

صالح وقد كان في وادي القرى حوالي عام ٤٤٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل إلى قبيلة ثمود.

شعيب وقد كان في بلاد مدين حوالي عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لشعب مدين وما حولها.

إسماعيل وقد كان في مكة المكرمة حوالي عام ٣٨٠٠ قبل الهجرة، وكان قد أرسل لقبيلة جرهم.

وعلى هذا تكون جزيرة العرب قد بقيت دون نبي أكثر من ٣٤٠٠ عام دون رسول منذ أيام شعيب، عليه السلام، عام ٣٤٠٠ قبل الهجرة وحتى بعثة رسول الله ﷺ عام ١٣ قبل الهجرة، ولهذا كانت بعثة محمد بن

عبد الله، عليه أفضل السلام، على فترة من الرسل، وكان الناس قد غيرّوا كثيراً وبدّلوا، فأشركوا بالله وعبدوا الأصنام، وارتكبوا المحرمات، وفعلوا المنكرات، وظلموا أنفسهم، وظلموا الناس، وما انتشر في البلاد من عقائد نصرانية ويهودية لم تفعل شيئاً، لأن أتباعها قد حرّفوا ما جاءت به من صفاء، واتبعوا أهواءهم، ولم تكن أعمالهم أفضل بكثير من أعمال المشركين الذين يعيشون معهم إن لم نقل أنها كانت تتشابه في كثير من الطقوس والشعائر، ويتفق بعضها مع بعض. هذا إضافة إلى الجهل وقبول الخرافة والإيمان بالأساطير، ولعلنا نستطيع أن نلقي أضواء على بعض جوانب حياة المجتمعات في تلك الأرض قبيل بعثة رسول الله ﷺ وباختصار شديد.

كان أكثر السكان في البوادي يحيون حياة الرعي والبداوة، ويتنقلون باستمرار بحثاً عن الماء والمرعى، ولا يجدون مجالاً للاستقرار والراحة، وحيث وجدوا ما يسعون إليه ضربوا خيامهم، وأخذوا يفتشون عن مكان سواه، وكثيراً ما يحصل التنازع بين القبائل على إحدى البقاع التي تتوفر فيها المراعي أو عرفت بوجود المياه فيها، ولكل قبيلة منازلها المعروفة وبقاعها المحدودة لا تتعداها، وتقوم الحروب بين هذه القبائل، وقد تستمر السنوات ويكون السبب تافهاً لدرجة. وتقوم حياة هؤلاء السكان على تربية الماشية وما تنتجه من ألبان ولحوم وأصواف، واقتصرت بيوتهم على الخيام لسهولة نقلها معهم حيثما رحلوا، وسهولة اقتلاعها وضربها حيثما حلوا.

وإذا وجدت المياه في مكان قامت عليه واحة، وقامت معه الزراعة، وقامت معه البلدة، وإن كان غالباً ما تكون الزراعة بأيدي العبيد إذ يأنف الناس الزراعة، ويعدونها من عمل الضعفاء كالنساء والعبيد، أما هم فمهمتهم الانتقال وراء الحيوانات أو السعي وراء الغزو، وإذا قامت البلدة شيدت دورها من المادة التي تقدمها لهم الطبيعة بسخاء، فتكون من الحجارة أو الطين، مثل (يثرب) و (الطائف)، و (حجر) وغيرها، كما أن المنطقة التي تقع على أطراف البادية توجد فيها بعض المدن التي قامت

بسبب وجود أسواق يتبادل فيها سكان البادية والحضر منتوجاتهم، الأمر الذي جعل عدداً من المدن تقوم على طول أطراف البادية، وتشتهر بالتجارة مثل مكة، ويثرب، ودومة الجندل وغيرها، وغدا لهذه المدن تجارات واسعة تتجاوز الجزيرة فكان أهل مكة يصلون إلى بلاد الشام في فصل الصيف، وإلى اليمن في فصل الشتاء، وكان سوق دائم في دومة الجندل، لذا كانت المدن هذه طريقاً للقوافل، فهي إذن سوق ومركز على طرق التجارة، كما كانت هناك أسواق موسمية، وأشهرها عكاظ التي تعقد في موسم الحج في كل عام.

ولكل قبيلة أفرادها الذين يفتخرون بها، وتدافع عنهم. وتُعد القبيلة كتلة واحدة تشترك جميعها في دفع الدية إذا اقتضى الأمر، وتحاول أن تأخذ بثأر من يصيبه مكروه من أفرادها. والفرد فيها يطيع ويسمع، فإذا رفض شيئاً لفظته القبيلة وعُدّ طريداً، وقد يأخذ طريقه إلى قبيلة ثانية يتحالف معها ويعد مولى لها. وقد تتحالف قبيلة مع أخرى لصلة في النسب أو لمصلحة ضد قبيلة ثالثة. وربما لفظت قبيلة أحد أفرادها ولم يلجأ إلى غيرها، وإنما يبقى وحيداً، يغير على القوافل، ويسطو على ما ليس له، وهذا ما يسمى بالصعلكة، وقد يلجأ الصعلوك إلى الكسب من الغارة وإعطاء من يجد أنه بحاجة ولا يستطيع الإقدام على ما يقوم به هو لضعف، أو عجز، أو صغر في السن، أو أن تكون امرأة.

ونتيجة للتفاخر بالقبيلة فقد وجدت معرفة النسب، كما وجد لكل قبيلة شاعر يفتخر بأيامها وأحسابها وفضائلها، ولها خطيبها أيضاً المدافع عنها لذا كان للأدب دور بارز في تلك الحياة، وما اشتهر من القصائد، وأجمع على قوتها علقت على جدران الكعبة فعرفت باسم المعلقات.

ومن حياتهم العامة في الانتقال بالأسفار والسير وراء القطعان، فقد رصدوا النجوم وموقع الكواكب، لتهديهم السبيل في سيرهم ليلاً، وتأثروا بالقمر الذي يمدهم بالنور ليلاً حيث يسمرون، لذا كان التقويم على أساسه، على حين أن الشمس تعطيهم الحرارة الشديدة التي تجبرهم على

البقاء في خيامهم نهاراً. وأعطوا بعض الكواكب أسماء لا تزال مستعملة حتى الآن مثل عطارد، والزهرة، والثريا، والفرقدان و. . . . كذلك فقد كان للقيافة ومعرفة الأثر دور كبير في حياتهم العامة.

وكان لطبيعتهم والانتقال وراء الحيوانات في سبيل المرعى والماء أثر في معرفة الجو، وترقب هطول الأمطار، ومعرفة الغيوم الممطرة منها، والخلب، وهو ما عرف بعلم الأنواء.

وأفادوا من النباتات في التداوي، وكان للكاهن أثر في حياتهم الاجتماعية ومداواة مرضاهم، هذا بالإضافة إلى النظر في النجوم، والتطير. . .

أما المجتمع فكان ينقسم إلى طبقات يأتي في رأسها شيوخ القبائل إذ كان لكل قبيلة شيخ لا تخرج القبيلة إلا برأيه، ويساعده مجلس من رجال القبيلة أكثرهم من المسنين الذين يعرفون مساقط القطر وأنساب القبائل أكثر من غيرهم هذا بالنسبة إلى البداوة، أما بالنسبة إلى سكان المدن فكان يأتي في رأس الطبقات الأغنياء وأصحاب التجارة الذين يستطيعون بأموالهم أن يشتروا العبيد، وأن تكون لهم الكبرياء في الأرض، ويضاف إلى الأغنياء الأقوياء الذين لهم عدد من الأولاد والإخوة يستطيعون بهم أن يفرضوا رأيهم، وأن تكون كلمتهم هي المسموعة، وإذا خالفهم أحد أرهبوه بالقوة وأسكتوه بالعنف، لذا يخشى جانبهم وتكون لهم السيادة. وفي مكة بشكل خاص كان يضاف إلى رأس الطبقات سدنة البيت الحرام وحجّابه وحملة لواء قريش. وقد كان قصي بن كلاب سيد قريش هو الذي بيده الحجابة والسدانة وحمل اللواء، وقد تسلم هذا بعد أن تولى أمر مكة من خزاعة، وأحدث الرفادة وهي إطعام الحجيج، والسقاية، وبنى دار الندوة. فلما كبر قصي وضع هذا الأمر في يد أكبر ولده وهو عبد الدار، إلا أن الأبناء قد اختلفوا بعد أبيهم، وانقسمت قريش فرقتين، ثم اتفقوا أن تكون الرفادة والسقاية بيد عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء ودار الندوة في بني عبد الدار، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام.

وقريش كلها كانت تفتخر على العرب، فتقف في مزدلفة على حين تقف بقية العرب في عرفة، وتجبرهم أيضاً على لباس نوع خاص من الثياب أو تستعير من قريش وإلا كان عليهم أن يطوفوا عرايا، واستمر ذلك حتى أبطله الإسلام.

أما بقية أفراد المجتمع فكانوا في الدرجة الثانية إلا إذا قوي أحدهم بماله الذي آتاه الله، أو بعبيده الذين اشتراهم فيما بعد، أو بقوته حيث يستطيع أن يمنع نفسه، حتى إن الضعيف كثيراً ما كان يخشى الفقر فيقتل ولده أو يئد ابنته خوف الفقر والعار. يضاف إلى هذا العبيد والإماء الذين كانوا يكثرون في كل مكان، وعلى كاهلهم تقوم الحياة الاقتصادية، فهم الذين يحلبون النوق والأغنام، ويزرعون إن كانوا يقيمون في الواحات، أو يسيرون وراء الحيوانات بإشراف أحد الكبار، أو يخدمون في القوافل التجارية التي يشرف عليها أحد الزعماء، وقد يمتهنون مهنة أخرى كالحدادة وغيرها وهذه المهن يأنف المجتمع العربي بأفراده أن يعملوا فيها لذا عليهم أن يوكلوها إلى الأرقاء والعبيد واستمر هذا الوضع حتى جاء الإسلام.

وكانت المرأة على مستوى من الانحطاط لا يصل بها إلى درجة الإنسانية إلا في حالات قليلة، فكان يتصرف بها كالمتاع، وكانت الدعارة في صور شتى، شأنه في ذلك شأن كل مجتمع جاهلي قديم أو حديث. وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته ـ إذا طهرت من طمثها ـ: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبيّن حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة، كلهم يصيبها. فإذا حملت ووضعت ومرّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن

يمتنع، حتى يجتمعوا عندها تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، ولا يستطيع أن يمتنع به الرجل. والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع عمن جاءها... وهن البغايا وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لهم القافه، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه، ودعي ابنه لا يمتنع عن ذلك».

وكانت الخمرة والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية، ومن مفاخره كذلك، وكان يجتمع الكثير من الناس من أجل شرب الخمرة ومعاقرتها، وتدار الكؤوس... وتدور الرؤوس... واستمر ذلك حتى جاء الإسلام وحرمهما.

وكانوا يفخرون بالكرم الذي يصل إلى كثير من الأحيان إلى حد الإسراف الذي يجعل المرء بعدها فقيراً معدماً خوفاً من أن ينعت بالبخل أو عدم الكرم على الأقل، وبقي ذلك حتى جاء الإسلام فنهى عن ذلك الإسراف.

وكان القتال بين القبائل بعضها مع بعض ضد قبيلة أخرى، وإن أشهر الحوادث الحربية هي التي دارت رحاها بين القبائل العدنانية نفسها أو بينها وبين القبائل القحطانية، وقد عرفت باسم «أيام العرب» وقد تحدث بين بطني القبيلة الواحدة، كما تم بين عبس وذبيان أو بكر وتغلب، وأشهر هذه الأيام:

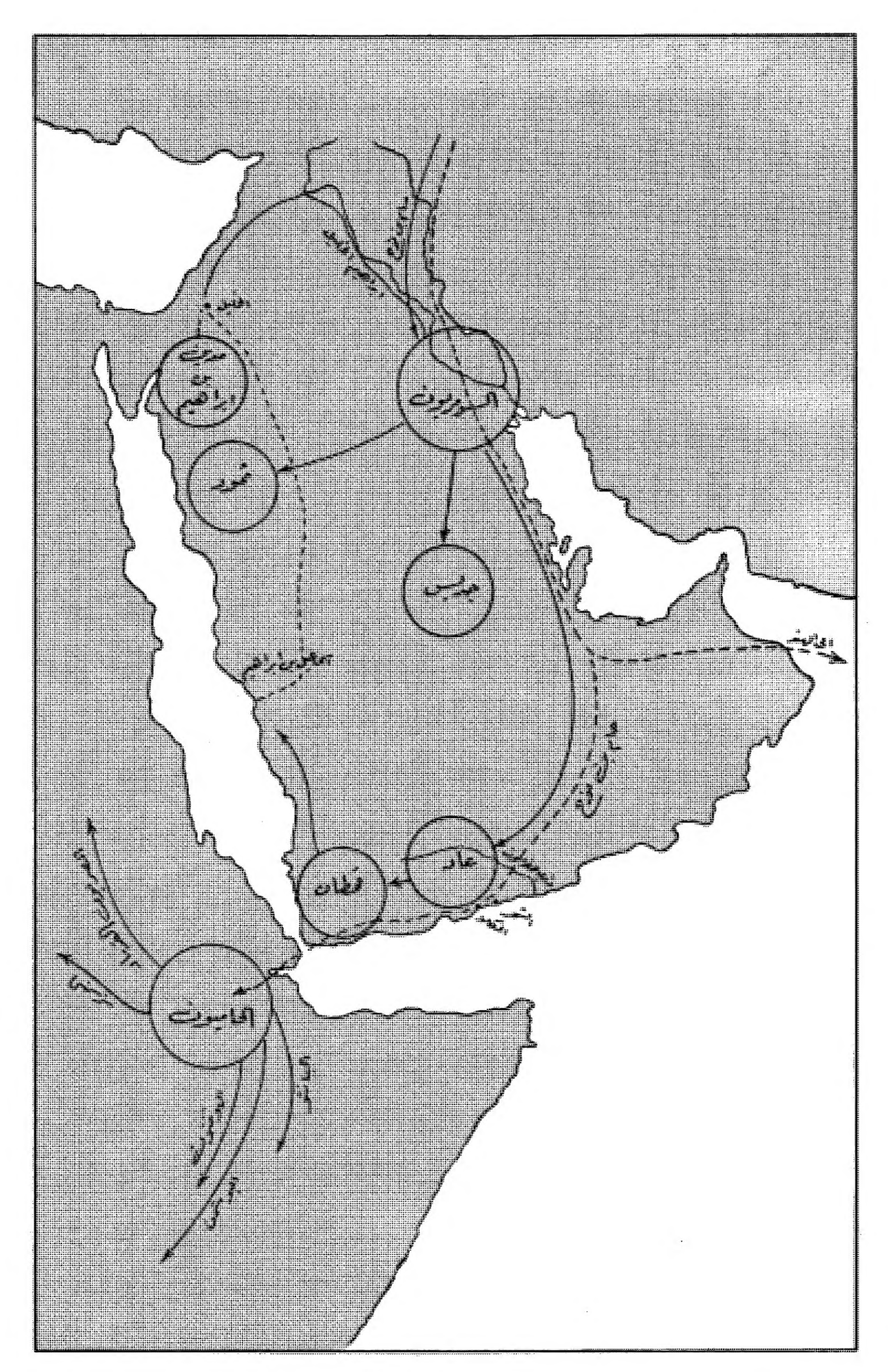
١ ـ حرب الفجار التي دارت رحاها بين قيس من جهة وكنانة وقريش من جهة ثانية، وسميت بحروب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم.

٢ ـ يوم داحس والغبراء: وقد وقعت بين عبس من جهة وذبيان وفزارة من جهة ثانية.

٣ ـ يوم بعاث: ووقعت بين قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب.

٤ ـ حرب البسوس: ووقعت بين بكر وتغلب...

هذا المجتمع كان بأشد الحاجة إلى نبي يأخذ بيده نحو الخير ويهديه السبيل، كما كان العالم كله بحاجة إلى رسول يعيده إلى الحق بعدما لعبت أهواء الجاهلية فيه فعاش بحالة من البؤس، وكانت الديانات السماوية قد حُرِّفت وبدلت وأصبحت تعاليميها الموضوعة وفق أهواء واضعيها، وكانت الرسالة الجديدة تقتضي أن تكون عامة للبشر جميعاً، ناسخة ما قبلها وهذا ما كان برسالة محمد بن عبد الله، عليه الصلاة والسلام، وهو ما نجده في القسم الثاني ـ إن شاء الله ـ.


عاد
قحطان

فهرس الموضوعات